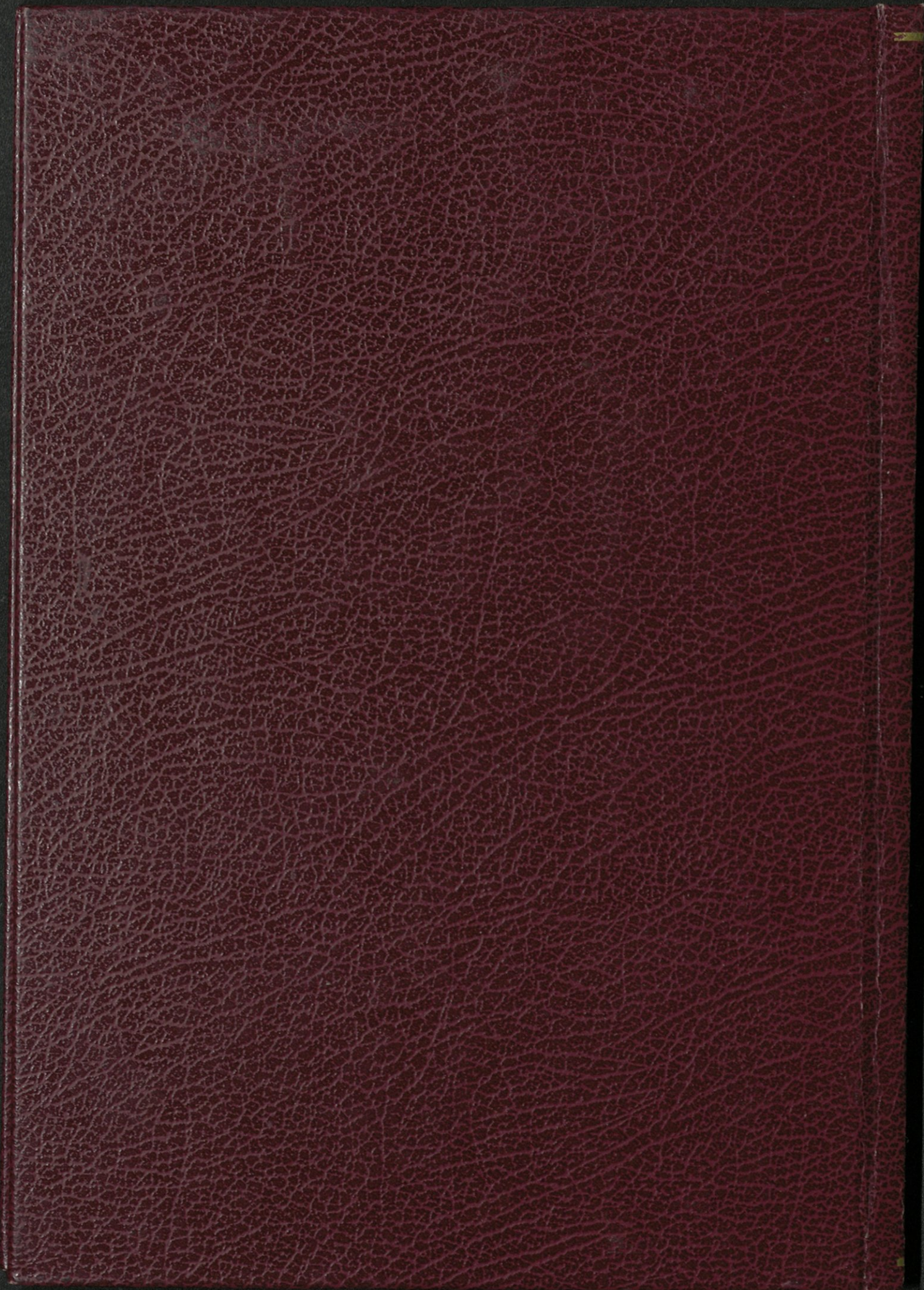
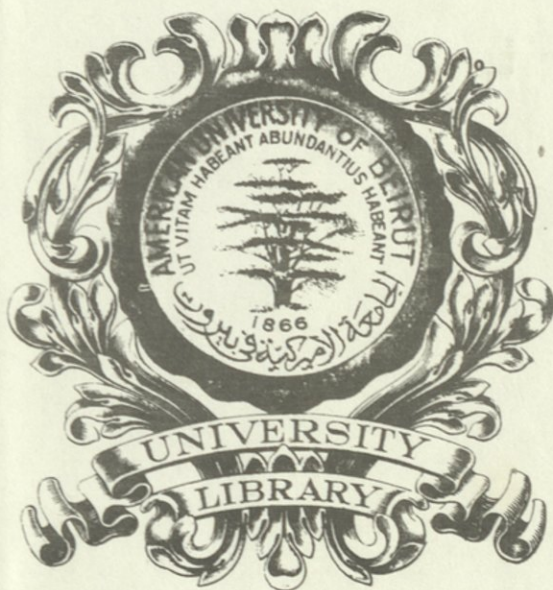




U.S. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



U. D. LIBRARY

محرمه ظهر اربعى نجاشى

فيليب حتى ارفع هذا المؤلف الذى

محمد سعيد القاودى ينوه بخدماتك لأمتك

العربية فى بلاد العرب ككراميا لابنها

الباء حفظه الله عز وجل

لأمة العربية آية

والصدقة ١٧ عام ١٢٧٥

المواضع نحو عام ١٩٥٢

بين تاريخنا

دار مصر للطباعة

١٢٧ (١٩٥٢) شاع كامل صنف ٧٥١٤٧

وإذا كنتُ أرى من واجبي في هذا المقام أن أشكر الصديق
الفاضل صاحب المنهل الأغر على تفضله بكتابة تصديره القيم لهذا
الكتاب ؛ فلا أرى مناصاً من أن أصرح القارئ العزيز بأن الأستاذ
إنما نظر إلى الكتاب بعين الرضا ؛ لذلك أضفى على الكتاب ومؤلفه
من ثنائه ما شاءته له هذه النظرة ؛ وما شاءه له خلقه الكريم .

وأخيراً . . . أرجو أن أكون — أيها القارئ الكريم —
قد قدّمتُ إليك شيئاً يستحقّ عناء القراءة . . . وإلاّ فحسبي إنى قمت
بتنفيذ رغبة إخوان كرام ؛ لم أجد ؛ ولن أجد إلى مخالفتهم سبيلاً .
ومن الله نستمد العون والتوفيق .

مكة المكرمة

م . س . ع

Philip K. Barri

تصدير

بقلم الأستاذ عبد القدوس الأنصاري

صاحب ورئيس تحرير مجلة المنهل الغراء

الكاتب . . .

ليس الصديق الأستاذ محمد سعيد العامودي مؤلف هذا الكتاب ومحرر هذه البحوث ، بالكاتب المجهول في عالم الأدب والثقافة في بلادنا حتى يحتاج إلى تقديم أو تعريف إنه في طبيعة الرواد بالنسبة للأدب الحديث في هذه البلاد . . هو من بُناته الأوائل وواضع أسسه ورافعي راياته في الآفاق ، وهو مخلص لفنه وفكره وثقافته ، لا يقول إلا ما يراه حقاً ، ولا يلج موالج الزيف مهما تكن البواعث والدوافع قوية أو ملزمة . . يرضى ضميره وتفكيره ويتعمق في مطالعته ، ويستلهم كل ذلك فيما يكتب . . وبذلك كله استوى له ما أسميه (كفتى العمق والاتزان) وقد استطاع بما وهبه الله من مران أدبي مصقول ، أن يقول كل ما يريد . . . وفي الحق أن بحوثه في ميادين التاريخ والاجتماع والصحافة والثقافة بحوث ممتعة مفيدة ، تجمع إلى جمال الأسلوب ، وبهاء الاستعراض ، جمال الدقة ، وبهاء التحيص ، وهو في ذلك موفق ، وقلماً يتأق ما وفق إليه — للأدباء الباحثين ، والباحثين الأدباء .

والأستاذ شاعر بعيد النفس عريق الشاعرية ، ولكنه بوصفه « رائداً وبناءً » رأى أن الشعر لم يُخلَق في العصر الحاضر ليوجه وليكيف الأمة إلى هذا الحد البعيد المدى الذي هيَّ (النثر) له باتساع آفاقه لأن يجول فيه ، فطلق الشعر قولاً لا ذوقاً ، ونادى بكفرانه به . وله الحق

في ذلك فان أدب اليوم ، هو أدب السرعة والانطلاق وأدب التحرر من مختلف القيود وهذا ما لا يتسنى لأدب مقيد بالوزن والقافية .. و بغير الوزن والقافية ... إن لأدب اليوم رسالة كبرى هي التغلغل في أعماق الحياة إلى أبعد حد ، لضمان إيقاظ خامدها ، وإنهاض جامدها ، وتعديل معوجها وتقويم منآدها ، وتبسيط معقدها ، وكبح جماح متطرفها وترقية منحطها ، وتقديم متأخرها .. وهذا ما كان الأستاذ العامودي من العاملين المخلصين في حقله ، المجيدين فيه الثابتين فيه ..

ولعل لا أكشف سراً إذا قلت : إن الأستاذ الكاتب من الأدباء القلة الذين لا يتركون أية مناسبة عالمية تمر ، أو أية عاصفة تهب في أرجاء الدنيا ، أو أى حدث كبير يقع إلا ويحيل فيه فكره ثم يشرع قلمه ، فاذا به يحبر ويدبج المقالات التاريخية أو الأدبية ، وإذا به يدمج التوجيه الذى يرى توحيه لمواطنيه ووطنه في طيّات مقاله ، إدماجاً سداً ولحمته اللبقة في الاستعراض . وكل قارىء لما كتب يفتن بطبيعته إلى هذا السر ، وإلى هذا الهدف وهو يصل من ذلك إلى مبتغاه بأسلوب ليس رمزياً ، وليس صريحاً ، إنه أسلوب الكاتب القدير فى فنّه الذى يراعى الأجواء ويفهم اتجاهات الرياح ، ويعرف كيف يسير سفينة بحثه وتوجيهه بين التيارات المتضاربة والجو المغبر المكفهر ، حتى يصل بها آخر الأمر إلى ساحل السلامة والنجاح ..

وهذه الغاية لا يوفى إلى ذروتها إلا كل كاتب موهوب ..
ولأقول غير الواقع ، إذا ما أنا سلكت الأستاذ العامودي في هذا الصف
من الباحثين القلائل عندنا وهم الذين نحن أحوج إليهم من سواهم وبخاصة
أدباء (الفن للفن) ...

الكتاب :

لقد ظل الأستاذ يمد الأدب في الصحافة الوطنية بمختلف بحوثه
في ميادين الأدب البحث في الفترة الأولى من حياته الأدبية ، ثم رأى
أن أدب (الفن للفن) لون من ترف الحياة والأدب ومن ثم انصرف
إلى (البحث العلمي) يطعمه بأسلوبه وبذوقه الأدبي الرفيع فكان ثانياً
اثنين من أدبائنا الذين اتجهوا هذا الاتجاه الحميد ؛ أو حاولوا أن يوجهوا
الأدب الوطني إلى هذا النحو من الاتجاهات ، وقد وفق الأستاذ وانكب
على المطالعة وواظب على كتابة البحوث التاريخية التي لحتها البحث
التاريخي وسداها إيقاظ الوعي الوطني إلى تبني الطريف من طريق
إيقاظ ذاتيته واستعراض مميزاته العريقة أمامه على شريط فني ممتاز من
القول الجميل ، وجاء هذا الكتاب نتيجة ذلك الاتجاه ، ونتيجة لجولاته
في الصحافة في هذا المجال .

ويتألف الكتاب من تسعة بحوث وكل بحث يصح أن يسمى
كتاباً بمفرده لأن المعلومات مبسطة فيه تبسيطاً جميلاً ، ومضغوطة

فيه ضغطاً جميلاً ، فهي كما قال شاعر العراق الكبير محمد رضا الشيبى :
وأجمع أقوال الرجال أسدها معان كباراً فى حروف قلائل !
فهذا بحث (سياسة المال فى عهد عمر بن الخطاب) هو من
البحوث النادرة الموقفة .

ولا نريد أن نمر بهذا البحث الطريف ، دون أن نعلق عليه ،
فإن الأستاذ الفاضل أمارت لنا اللثام عن مبدأ تدوين الدواوين فى
الإسلام بأمر عمر وأبدى لنا أن هذه الدواوين كتبت فى مصر والشام
بالتبطينة والفارسية حتى حولها عبد الملك الأموى إلى اللسان العربى . .
أفيأتري بماذا دونت دواوين الحجاز ونجد والجزيرة العربية فى عهد
عمر بن الخطاب ؟

ونمضى قدما إلى بحث (الضمان الاجتماعى فى عهد عمر) فإذا
البحث ممتع شائق . يكشف فيما يكشف عن ناحية عظيمة من مفاخر
الإسلام بتقرير الضمان الاجتماعى فعليا وبدون تزويق ولا بطء
من قبل ألف وثلاثمائة واثنين وسبعين عاما . .

و (أوليات عمر) بحث قيم يشهد لكاتبه بالإخلاص لفنه
وبالتوفيق فى درسه . . . فقد استعرض لنا فيه باقات عطرة خالدة
من أوليات هذا الخليفة الموهوب الملهم . . فإذا بها أوليات تضع
على مفرق تاريخنا أكاليل الفخار الخالد . . . والتوجيه إلى هذا
الماضى الذهبى هو من أهداف الكاتب اللبق حتى لا يأخذنا بهرج

المدنية الغربية فتعمى بصائرنا عن فضائلنا الخالدة . فإذا تجاوزنا إلى ما وراء السطور في هذا البحث القيم الفريد نجد الأستاذ كاتبه إنما يريد التوجيه إلى أن يقتفى المعاصرون الأواخر من بناء الممالك العرب بالأوائل . . . فذلك علامة نجاحهم الصحيح .

وهناك بحث (العناصر النفسية في سياسة العرب) إنه بحث دقيق استعرض فيه الكاتب مؤلفاً للأستاذ شفيق جبرى^(١) في هذا الموضوع ، استعراضاً لم يخل من الكشف عن مآخذ صحيحة دقيقة في أسلوب متأدب رزين ولكنه عميق قوى ناضج . . . وقد كان مجلي هذا النقد الحصيف يتمثل في موضوع عدم استخلاف عمر . . . واستخلاف معاوية رضي الله عنهما . . .

وقل مثل هذا في مقال (تاريخ العرب الموجز) فهو استعراض ونقد وتمحيص لكتاب الأستاذ فيليب حتى ؛ الذي يحمل هذا العنوان . ومن أجمل النقدرات في هذا المقال موضوع اسم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصنيع الحسن بن علي في تنازله عن الخلافة لمعاوية رضي الله عنهما . . . لقد أوفى العامودي هذا النقد حقه ، فله شكر التاريخ والتحقيق .

فإذا جئنا للبحث الخاص بنقد كتاب (الموالى في العصر الأموي) فإننا نجد الأستاذ يكتفى باستعراض بحوث الكتاب ، ولم نره كدأبه يحلل ويعلق وينقد .

(١) عميد كلية الآداب في دمشق .

أما بحثه « من نوادر المخطوطات » فهو من نوادر البحوث التي يحسن العناية باستيعابها وامثالها فيما يكتبه الكتّابون ، لأنه بحث تاريخي تحليلي مركز ، لكتاب مخطوط يتعلق بالتاريخ القريب المجهول عن بلد الله الحرام . . .

و « من تاريخ الصحافة في بلادنا » بحث ممتع هو الثاني من نوعه في هذا الميدان ، والأول هو بحث الأستاذ المحقق رشدي الصالح ملحق الذي استند إليه الأستاذ العامودي في بعض النقاط . . وقد سجل هذا البحث تكملة ما انتهى إليه الأستاذ رشدي ، فوصل حاضر الصحافة في هذه البلاد بماضيها .

و « هل الحروب تطوى الحضارات ؟ » بحث اجتماعي مركز جالت فيه يراعة الأستاذ جولة الباحث المتعمق ، ومن الجدير بالذكر أننا كنا نتخوف حين بداية الحرب العالمية الثانية أن تنهار الحضارة الحاضرة على عروشها فكان توجيه (المنهل) لذلك الاستفتاء إلى الأدباء أثراً من آثار الشعور بمرارة ما سيحدث أو ما نتخوف أن يحدث للعالم أجمع نتيجة للحرب المدمرة . . . وقد كان جواب الأستاذ الذي نتحدث عنه حصيفاً مطابقاً لما حدث ، فلم تنهار الحضارة بسبب الحرب ، بل مضت قدماً إلى الأمام . . .

عبد القدوس الأنصاري

مكة المكرمة

والله اعلم بالصواب...
...والله اعلم بالصواب...

...والله اعلم بالصواب...
...والله اعلم بالصواب...

...والله اعلم بالصواب...
...والله اعلم بالصواب...

...

...

سياسة المال ، أو السياسة المالية في عهد عمر بن الخطاب ، موضوع خليق بالدراسة والبحث في هذا العصر خاصة ، بعد أن تطورت العلوم والنظم المالية والاقتصادية ، وقطعت شوطاً بعيداً من التقدم والنضج ، وأصبح النجاح في سياسة المال ، المعيار الأول لنجاح الأمم في سائر مرافقها الحيوية .

وعندما يدرس الباحثون تاريخ الإسلام في شتى نواحيه الاجتماعية والعمرانية — بله السياسية — يجدون أول ما يجدون في طليعة مفاخر المسلمين في الصدر الأول من تاريخهم ما أنشأه هذا الخليفة العبقري العظيم من أنظمة عديدة في مختلف الميادين ، وفي رأس هذه الأنظمة دون أى شك أو مرأ ، نظام عمر المالى ، أو بعبارة أخرى : سياسته المالية . .

لقد كان عمر أول من وضع السياسة المالية في الإسلام ، كنتيجة لابد منها لاتساع الفتوح وانفساح رقعة الدولة في أيام خلافته الراشدة ، فهو أول من أوجد الدواوين ، وعين أبواب الإيراد والمصرف ، ونظم حسابات كل منها . . ثم كان عمر أول من استعمل التاريخ الهجرى ، وعلاقة ذلك بالمال والحساب والسياسة المالية غنية عن البيان .

ويكفى أن نقول إن هذه السياسة العمرية هى التى ظلت نافذة المفعول في جميع الدول الإسلامية التى أعقبت الخلفاء الراشدين .

وإلى اليوم ما زالت أكثر قواعدها النبراس الذى يستضاء به ،
والمبدأ الذى يجرى عليه العمل باستمرار . . ونظرة بسيطة إلى المؤلفات
العربية القليلة فى علم المالية تدلنا على ذلك فى وضوح لا يقبل الشك .
يقول الأستاذ الكبير « فارس الخورى » فى كتابه القيم (موجز
فى علم المالية) : « وهو — أى عمر — الذى وضع أكثر القواعد المالية
فلم يجرؤ من جاء بعده على مخالفتها ، فبقى جانب عظيم منها نافذاً
فى عهد الأمويين والعباسيين واستمر بعضها إلى الزمن الأخير » .

وقد كان اتساع الفتوح فى عهد عمر كما قلنا ، وتكاثر ورود
الغنائم والأموال إلى عاصمة الخلافة فى مقدمة الأسباب التى ألهمت
الخليفة الثانى أن يضع أصول وقواعد سياسته المالية . . ولعل أول
ما حدث فى هذا الشأن ما يذكره المؤرخون من قدوم أبى هريرة
رضى الله عنه إليه من البحرين ، وكان عاملاً له هناك ؛ قدم إليه
أبو هريرة ، ومعه مال كثير ، فقال عمر : بم جئت ؟ قال بخمسمائة ألف
درهم فاستكثر عمر ذلك وقال له : أتدرى ما تقول ؟ قال نعم ؛ مائة ألف
خمس مرات . . فصعد عمر المنبر وقال : أيها الناس قد جاءنا مال كثير
فإن شئتم كلنا لكم كيلاً ، وإن شئتم عددنا لكم عداً ، فقام إليه رجل
فقال : يا أمير المؤمنين قد رأيت هؤلاء الأعاجم — يعنى الفرس والروم —
يدونون لهم ديواناً ، فقال عمر : « دونوا الدواوين » .

• وكان هذا باعث تدوين الدواوين ، على مثال ما كانت عليه
في دولتي فارس والروم ، ومن ثم كانت في بادىء الأمر تكتب بالرومية
في الشام ، وبالفارسية في العراق ، وبالقبطية في مصر ، إلى أن جاء
الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، فحول كتابة هذه الدواوين إلى
اللغة العربية .

وكانت الإيرادات تجمع من الصدقات ومن أخماس الغنائم ، ومن
النفى ، وهو جزية أهل الذمة ومن الخراج ، ومن العشور ، ومن
مواريث من ليس لهم وارث من موتى المسلمين . . .

وكانت الصدقات تؤخذ من أغنياء المسلمين على المواشي والذهب
والفضة والأثمار والزروع إذا بلغ كل منها نصاباً معيناً ، ثم تردُّ هذه
الصدقات إلى فقرائهم على النحو الذي بينه القرآن الكريم في آية :
(إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم
وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل) .

وكانت أخماس الغنائم تقسم على ثلاثة سهام لليتامى والمساكين
وأبناء السبيل . وفي عهد عمر أعيد السهمان الآخران : سهم الرسول ؛
وسهم ذوى القربى إلى بيت المال .

وكانت الجزية تؤخذ من غير المسلمين في البلدان الرومية والفارسية
التي افتتحها المسلمون ، وفي أوقات معينة من السنة ، وكانت تختلف

مقاديرها باختلاف درجات الأفراد وآخر ما استقرت عليه في هذا العهد هو (٤٨) درهما للرجل الغني و (٢٤) للمتوسط و (١٢) للفقير وكان يعفى النساء والصبيان وأهل العاهات والرهبان من دفع الجزية فيما عدا البلاد التي عقدت شروط الجزية معها ، باتفاق خاص كمصر التي كان يؤخذ على غير المسلمين فيها ديناران عن كل من بلغ الحلم شريفهم ووضعهم على السواء إلا النساء .

وكان الخراج يؤخذ على الأراضى في البلدان التي فتحها المسلمون وتركوها في أيدي أهلها ملكا لهم ، فكانوا يجعلونه أحيانا خراجا موظفا ثابتا كما جرى في سواد العراق ، وأحيانا خراج مقاسمة ، وبقيت ضياع البطارقة والأمراء المنهزمين ملكا لبيت المال يقبلها العمال ويستثمرونها لحساب الخزانة العامة ، والعشر هو الحصة الشائعة المضروبة على حاصلات الأرض التي أسلم أهلها عليها من أرض العرب أو العجم ، أو ملكها المسلمون عنوة من قوم لا تقبل منهم الجزية كعبدة الأوثان والمجوس ، ومثلها الأرض التي احتازها المسلمون وقسموها بين الغانمين^(١) .

وكان من رأى فريق كبير من أقطاب المسلمين أن تقسم أراضى البلدان التي فتحها المسلمون على المجاهدين باعتبارها من الغنائم . وهذا يجدر بنا أن نشير إلى موقف عمر أمام أصحاب هذا رأى . فقد أبى عمر هذا

(١) موجز في علم المالية للاستاذ فارس الخورى .

التقسيم . ووقف وقفته الخالدة . وقفته التي دلت على منتهى بعد النظر .
لقد تحدى عمر في صرامة وسداد كبار أهل الحل والعقد من أصحاب
رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقال لهم قولته المشهورة : « فكيف بمن
يأتى بعدكم من المساميين فيجدون الأرض قد اقتسمت بمن عليها ، وحيزت
ارثا عن الآباء ما هذا برأى . . » فقال له عبد الرحمن بن عوف رضى الله
عنه ؛ فما الرأى ؟ ما الأرض وعلوجها إلا مما أفاء الله عليهم (أى الفاتحين)
فقال عمر : ما هو إلا كما تقول . ولست أرى ذلك . . فإذا اقتسمت
أرض العراق بعلوجها . وأرض الشام بعلوجها فماذا تسد الثغور . ؟
وما يكون للذرية والأرامل ؟ فلما أ كثر هؤلاء عليه . واختلف المهاجرون
في هذا . رأى أن يستشير بعض كبراء الانصار . فلما اجتمعوا قال لهم :
قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم . وأنى أعوذ
بالله أن أركب ظلما . لئن كنت ظلمتهم شيئا هو لهم وأعطيته غيرهم .
لقد شقيت . . ولكن رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى .
وقد غنمنا أموالهم وأرضهم وعلوجهم . فقسمت ما غنموا من أموال بين
أهله وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وأنا في توجيهه وقد رأيت
أن أحبس الارضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج وفي رقابهم الجزية
يؤدونها فتكون فيئا للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتى بعدهم أرايتم
هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها ؟ أرايتم هذه المدن العظام كالشام

والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لا بد لها من أن تشحن بالجيوش
وأدراك العطاء عليهم.. فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الارضون والعلوج؟
فقالوا جميعا . الرأي رأيك فنعم ما قلت وما رأيت ^(١) . !

ما أعظمه من موقف رائع سجله التاريخ لعمر في ذلك اليوم
العصيب ! ولقد أثبت الزمن واثبتت علوم المال والاقتصاد كلها فيما بعد
أن رأي عمر في عدم موافقته على قسمة الأرضين كان هو وحده الرأي
الناضج السليم .

وكان عمر في تمسكه برأيه هذا يرمى إلى هدف... كان يرمى إلى أن
يكون لدولة الاسلام الناشئة إذ ذاك باب مضمون من أبواب الإيرادات
الثابتة تشمل فائده الحاضر والمستقبل معا وأى خطة في مثل هذه الحال
يمكن أن تكفل ذلك سوى ما ارتآه عمر ؟ . إن هذه الخطة العمرية
أو هذه السياسية العمرية تكفل الحاضر بما يؤديه لخزينة الدولة سنويا
من المال هذا الباب الثابت من أبواب الإيراد حيث يصرف هذا
الإيراد في توطيد الأمن وفي المحافظة على الثغور وفي غير هذين من
مصالح المسلمين ثم هي خطة تكفل المنفعة المستقبلية بلا مرأى لأن
هذه الأراضي سوف تبقى للذرية وللجيل الذي سيأتي وسوف يبقى للدولة
الاسلامية من خراجها الثابت الدائم معين لا ينضب مهمات طول الزمن .

(١) يراجع تفصيل ذلك في كتاب الخراج للفاضل أبي يوسف .

وشىء آخر أيضاً ...

شىء آخر فطن له عمر ورمى إليه من وراء اتخاذه لهذا الإجراء ..
ذلك هو أن يبقى المسلمون كما كانوا من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ،
متفرغين لمهمتهم الكبرى وهى الجهاد ثم المحافظة على ما افتتحوه من
البلدان ، ثم هم يعد لهم من الغنائم ، ولهم من العطاء الدائم الذى يقرره لهم
ال خليفة ما يكفيهم ، فاما ما عدا هذا .. أما اقتسام الأرضين وامتلاكها
— كما شاء القسم الأكبر منهم — فليس هذا من الحكمة فى شىء . لأن
فى ذلك إجحافاً محققاً يلحق خزانة الدولة . أو بيت المال وهو أخرج ما يكون
إلى الموارد الغنية . لى يمول منها الجميع . ويصرف منها للجميع . ثم
لأن فى ذلك ظلماً للذرية وللجيل الذى سيأتى . ثم فيه .. — وهو الأخطر
والأهم — مشغلة للمسلمين عن مهمتهم الإسلامية الأولى .. مهمة الدعوة
والإرشاد والجهاد فى سبيل الله .

وأخيراً ماذا بعد كل هذا ؟ أم بعبارة أخرى .. هل كان هذا وحده
كل ما أراده الفاروق العظيم حينما صمم على تنفيذ هذا الإجراء ؟

الجواب .. كلا بطبيعة الحال وبحكم الواقع . فقد كان عمر يرمى
إلى هدف آخر أيضاً وكان هذا الهدف هو مراعاة سكان البلاد الأصليين
إلى جانب مراعاته للفاتحين من المسلمين فأراد أن يدع للأولين أراضيهم

يستمرون في تملكها . ويشغلونها على خير الوجوه أراد أن يدعهم أحراراً
وشأنهم في تملكهم لأراضيهم وتشغيلهم لها .. من جهة تحقيقاً لفكرة
الإسلام في الرأفة والرحمة والعدالة الاجتماعية . ومن جهة أخرى لكي
يمكن أن يستفاد من هذه الأراضي على أوسع نطاق . ولكي يمكن
أن يستخدم هؤلاء السكان كل ما أوتوا من خبرة ونشاط في استغلال
هذه الأراضي بإخلاص فيكون من ذلك إبقاء لمصلحتهم ويكون من
ذلك — أيضاً — خير ضمان لاستمرار الإنتاج وبذلك يستفيد بيت
المال فائدة محققة أقل ما توصف به هو : الثبات والاستقرار ..

وكان من متمات هذه السياسة في ترك أراضي البلدان المحتلة لأصحابها
الأصليين أن حظر عمر أيضاً بيع هذه الأراضي كما حظر على العرب
شراءها

وفي هذا الصدد يقول سيد أمير علي في كتابه (مختصر تاريخ
العرب) : وقد استطاع — أي عمر — بثاقب فكره وبعد نظره وهي
ميزة كانت تنقص خلفاء العصور المتأخرة أن يدرك أن توطيد دعائم
الامبراطورية وترقيتها مادياً إنما يتوقفان على رفاهية طبقة الفلاحين من
سكان البلاد الأصليين وتحقيقاً لهذه الغاية منع بيع العقار والأراضي
الزراعية في الأمصار المحتلة كما سن قانوناً يحظر فيه على العرب امتلاك
الأراضي والضياع .

ويقول (نيكلسون) في كتابه (تاريخ العرب الأدبي) مشيراً إلى ما كان من النتائج لهذه السياسة : « . . . وفي ظل النظام الذي سنه عمر انتظمت الأمور في بلاد العرب بعد أن ظهرت من أدران الشرك وأصبحت مورداً خصباً وقاعدة ثابتة لتموين الجيوش الإسلامية الدائمة وصار العرب المقيمون في المقاطعات المفتوحة أساساً لتموين القوات الحربية على الإقامة في معسكرات كبيرة والانفاق عليهم مما يجبي من غير المسلمين وكان من نتائج هذه المعسكرات أن قامت مدينتان ذواتا أثر بارز في التاريخ الأدبي هما البصرة عند ملتقى دجلة بالفرات والكوفة التي ظهرت إبان ذلك الحين أيضاً على الفرع الغربي للفرات وعلى مقربة من الحيرة » .

وقد كان لخراج هذه الأراضي الواسعة الفضل الأكبر في تدعيم المالية العامة وكان من أثره أن أحدث عمر (نظام العطاء) فوسع بذلك على المسلمين) ورفع من مستوى المعيشة وقرر الرواتب للعمال والقضاة والمؤذنين وغيرهم . . . ولقد وصل إيراد العراق وحده في سنة ٢٠ هـ إلى مائة وعشرين مليون درهم .

وكان من منابع الإيرادات العامة في ذلك العهد (العشور) وكانت تؤخذ بنسبة عشر المحصول على الأراضي الزراعية التي لا يؤخذ عليها خراج ؛ ومن العشور أيضاً ما كان يؤخذ رسوماً على العروض التي يأتي

بها التجار من البلدان الأجنبية 'وكانت تؤخذ بنسبة ربع العشر من المسلمين ؛ ونصف العشر من الذميين ؛ و بنسبة العشر من غير الذميين .
كتب أبو موسى الأشعري إلى الخليفة عمر : « إن تجاراً من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر » فكتب إليه عمر :

« خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين » وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين من كل أربعين درهما درهما وليس فيما دون المائتين شيء فإذا كانت مائتين ففيهما خمسة دراهم وما زاد فبحسابه »

وفي كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف أن أول من بعث عمر ابن الخطاب رضي الله تعالى عنه على العشور زياد بن جدير فأمره أن لا يفتش أحداً وما مرَّ عليه من شيء أخذ من حساب أربعين درهما ، درهما واحداً من المسلمين ومن أهل الذمة من كل عشرين واحداً ؛ ومن لازمة له العشر . .

وواضح أن عمر بن الخطاب إنما أراد من تقرير هذه العشور أن يعامل التجار من غير المسلمين بمثل ما يعامل به النصارى تجار المسلمين فاذن قد سبق عمر إلى تطبيق المبدأ الذي أصبح يطلق عليه اليوم « مبدأ المعاملة بالمثل » في القوانين الدولية . .

وإلى جانب العشور ، كانت هناك منابع أخرى للإيراد ، كمواريث
من لا وراث لهم ، وكغيرها مما تأتي أهميته في المكان الثاني . . .
ولم يغيب عن ذهن عمر ، وقد أخذ على نفسه أن يضع الأصول
والقواعد لمالية المسلمين ، أن يضع الضمانات الواجبة للمحافظة على
الأموال العامة ، فهو علاوة على ما اشتهر عنه من صرامته وشدته مع
كل عامل من عماله ومراقبته لكل حركة وسكنة من حركات وسكنات
هؤلاء العمال وتدقيقه في كل ما يعرض عليه من شكاوى وغيرها علاوة
على كل ما ذكر فقد أحدث لأول مرة نظام التفتيش المالي . . واختار
أول ما اختار شخصاً معيناً هو « محمد بن مسلمة » اختاره لاقتصاص
أخبار العمال ، وتحقيق الشكايات التي ترد عنهم ، وكان يبعث لكل
عمل أناساً مخصوصين ، فمنهم من يتولى تقدير الخراج ومنهم من يقوم
باحصاء الناس ومنهم من يوكل إليه مساحة الأرض ، ومراقبة جباية
الأموال ، يقول الجاحظ وهو يصف دقة عمر ويقظته في رقابته لعماله :
« إن علم عمر بمن نأى عنه من عماله كعلمه بمن بات معه على مهاد واحد ،
وعلى وساد واحد ، فلم يكن في قطر من الأقطار ولا في ناحية من النواحي
عامل إلا وعليه عين لا يفارقه ، فكانت الفاظ من بالشرق والمغرب
عنده في كل ممسى ومصبح ، وأنت ترى ذلك في كتبه إلى عماله ، حتى
كان العامل منهم يتهم أقرب الخلق وأخصهم به . . » ويقول المغيرة

بن شعبة — وهو من هوفى الدهاء — : إنه — أى عمر — كان أفضل
من أن يُخدع ، واعقل من أن يُخدع !

وقد شرع عمر فى استعمال التاريخ الهجرى ، بعد أن ظل المسلمون
يؤرخون بالاحداث الشهيرة لديهم كما كان العرب قبل الإسلام ،
يصنعون ، وكان بدء استعمال هذا التاريخ فى سنة ١٦ للهجرة بعد أن
أشار عليه على بن أبى طالب رضى الله عنه بأن يجعل التاريخ من السنة
التي هاجر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة .

وفى السنة الثامنة عشرة من الهجرة ضرب عمر الدراهم على نقوش
الدراهم الفارسية وكانت متداولة فى عهد عمر ، وقبل الإسلام كان العرب
يستعملون نقود فارس والروم من دراهم ودنانير .

وبعد . . فهذا هو عمر فى سياسته المالية !

بل هذا هو عمر الفاتح العظيم !

الفاتح الذى لم تكن فتوحه وقفا على ميدان واحد فحسب . . .
وإنما شملت فتوحه كافة ميادين الحرب والسلام . . . وكان فتحه الموفق
فى ميدان التأسيس المالى للدولة الإسلامية إبان تكوينها فى طليعة
هذه الفتوح !

عمر بن الخطاب والضمآن الاجتماعى

من الكلمات التي شاعت كثيرا في هذه الأعوام الأخيرة : كلمة « الضمان الاجتماعى » وقد أصبح لهذه الكلمة مدلولها الخاص اليوم ، فهمي تعنى أن الدولة فى هذا العصر يعتبرها الناس مسئؤلة عن رعاياها فى نطاق أوسع مما كانت عليه هذه المسئولية فى العهود الغابرة . . وأن عليها واجب السعى لتحسين وتسهيل معيشة هؤلاء الرعايا بصورة عامة ، وليس هذا فحسب بل أن على الدولة أن تؤمن لكل فرد قادر على العمل عملا . . إذا لم يستطع هو نفسه أن يؤمن ذلك العمل . . — وبهذا وحده — يمكن أن يتاح للدولة — أيا كانت — أن تقضى على ما يسمونه (الفقر) أو (العوز) أو بعبارة أخرى . يمكنها أن تقضى على عدو الإنسانية رقم (١) ؛ وبهذا أيضا لا يمكن أن يشعر أى فرد من المواطنين أنه « كمية مهمة » فى المجتمع الذى يعيش فيه ؛ أو أنه عالة على هذا المجتمع ، أو أن هذا المجتمع قد اضطره إلى أن يسأل الناس الآخرين . فأن شاؤوا أعطوه وإن شاؤوا حرموه . . .

وأما غير القادرين . . . أو بتعبير آخر ؛ أما العاجزون عن أن يقوموا بأى عمل ما ؛ لأى سبب من أسباب الشيخوخة أو المرض ،

وأما غيرهم وغيرهم من الأراذل واليتامى ، وكل من ليس له أى إيراد يكفيه شر الحاجة ؛ فهؤلاء جميعا تكفلهم الدولة بما لها من حق السلطة على الأموال العامة ، وبما عليها من الواجبات والالتزامات نحو كل فرد وكل جماعة من أفراد الأمة وجماعاتها . . .

وفكرة الضمان الاجتماعى هذه . . . لنا أن نقول عنها إنها (حدث جديد) بالنسبة لعالم اليوم ، والواقع أن هذه الفكرة فى معناها المفهوم هذا ، لم تبرز أكثرها ما برزت إلا من خلال أحداث الحرب العالمية الثانية ، وعلى الخصوص عندما ظهر فى بريطانيا « مشروع يفرديج » المشهور وهو مشروع يهدف إلى التأمين الاجتماعى بكل ما أصبحت ترمى إليه هذه الكلمة ومعلوم أنه فى أعقاب تلك الحرب ، وعندما بدأ النزاع يشتد بين المعسكرين الديموقراطى والشيوعى ، أخذت كلمات « الضمان الاجتماعى » و « التأمين الاجتماعى » « العدالة الاجتماعية » تتوغل فى أذهان الجماهير وكان من ضمن مقررات هيئة الأمم المتحدة — كما هو معروف — أن أصبح لها قسم خاص بالأمور الاجتماعية والدراسات الاجتماعية ، وتبارت معظم الحكومات فى هذا الميدان ، فأنشئت كل منها فى بلادها وزارة خاصة للشئون الاجتماعية . . .

ولقد سبقت مصر الشقيقة غيرها من أقطار العروبة ، فوضعت

أضخم مشروع للضمان الاجتماعى فى عام ١٩٥١ على يد وزيرها الشاب ،
الدكتور أحمد حسين .

ويتضمن مشروع الضمان الاجتماعى المصرى تخصيص رواتب
للأرامل والأيتام والعجزة إلى جانب توفير العمل للقادرين ، وفى صحف
مصر الواردة فى هذا الشهر (فبراير ١٩٥٢) أن وزارة الشؤون قد شرعت
فى تطبيق هذا المشروع فى مدينة القاهرة بعد أن سبق أن عمته فى العام
الماضى فى جميع أنحاء القطر ، وبذلك يكون هذا المشروع قد شمل
القطر المصرى جميعه بدون استثناء . . .

لقد قلت فى أول هذا المقال أن فكرة الضمان الاجتماعى هذه
إنما هى (حدث جديد) بالنسبة لعالم اليوم ! وأنا أعنى بعالم اليوم ؛
هذا العالم الذى يقول عن نفسه أنه العالم المتحضر أو العالم المتمدن ،
أو العالم الذى بلغ فيه الفكر والعلم أقصى المراحل فى التقدم والارتقاء . .
ولكن . . هل فكرة الضمان الاجتماعى تعتبر حدثاً جديداً
كذلك بالنسبة للتاريخ الإنسانى ؟ أو بالنسبة لتاريخ العرب وتاريخ
المسلمين . ؟

إن هذا التاريخ يقول بأفصح العبارات : كلا ! ليست فكرة

الضمان الاجتماعي حدثاً جديداً في هذا العالم ، بل ليست فكرة
الضمان الاجتماعي شيئاً تمخضت عنه عبقرية العصر الحديث ، وإنما
فكرة الضمان الاجتماعي فكرة مسبقة . . .

ولقد جاءت أول ما جاءت عن طريق الإسلام ! وكان عمر
بن الخطاب خليفة المسلمين العبقرى العظيم أول من أتيح له — بعد
أن اتسعت رقعة الإسلام — أن يقوم بتحقيق أول مشروع للضمان
الاجتماعى . . . بطريقة فذة مثالية وفى أسنى صورة عرفها تاريخ الإنسان !
إن الإسلام هو الذى أوجد لأول مرة فى تاريخ العالم ، فكرة
الضمان الاجتماعى . «وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم» والإسلام
— ولا فخر — هو الذى جعله (حقاً) وليس (إحساناً) . . . وكان
الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه يتولى تطبيق ذلك على أكمل
وأدق ما ينبغى أن يكون ، وعلى مثل ما كان عليه الرسول صلى الله
عليه وسلم ، سار خليفته الأول أبو بكر الصديق . . .

وفى العهد النبوى الكريم ، وفى عهد خليفته الأول رضى الله عنه
كان كل شىء يجرى بسيطاً . . . لأن الدولة لم تتسع بعد . . . من
أجل هذا لم تكن هنالك أية نظم أو أية قواعد لتدوين ما يرد من
أموال الدولة ، ثم تدوين أنواع النفقات ، فلما جاء عهد عمر . . .

وازدادت الفتوح واتسعت الدولة واحتاجت تبعاً لذلك إلى أن تضع
لنفسها من الأنظمة الجديدة ما يتلاءم وحياتها الجديدة . . رأى هذا
الخليفة العظيم أن يسير هذه الروح ، وأن يضع الأسس لهذه الدولة
الإسلامية الناشئة ، فما هو إلا أن بدأ أول ما بدأ بإنشاء الدواوين
على مثال ما كانت عليه في فارس والروم ، وما هو إلا أن أرّخ التاريخ ،
وما هو إلا أن منع تملك الفاتحين المسلمين أراضي البلدان المفتوحة وصمم
أن تكون هذه الأراضي ملكاً لأصحابها الأصليين على أن يؤدوا لبيت
المال خراجاً سنوياً . لماذا كل هذا ؟ ! لكي ينشئ للدولة الإسلامية
نظاماً مالياً ثابتاً متركزاً على دعائم قوية . .

وكان هذا الإجراء المالي الخطير من جانب عمر بن الخطاب
رضي الله عنه أول مادة رئيسية مما أخذ على نفسه أن يرسى قواعده
للمسلمين من برنامج يحقق كل ما تنطوى عليه كلمة ضمان اجتماعية !!
أجل . . لم يكن تدوين عمر للدواوين ، وتأريخه للتاريخ ،
وتحريمه تملك الأراضي المفتوحة وإصراره على إبقائها لأصحابها لكي
تستفيد المالية من خراجها السنوي الوفير . لم يكن كل ذلك إلا تمهيداً
لقيامه بأول عمل ضخم في ميدان التأمين الاجتماعي ، على أرسخ
القواعد والنظم ، مستلهماً في ذلك تعاليم الإسلام وما سبق أن بدأ به الرسول
وتابعه فيه خليفته الأول أبو بكر الصديق .

إن التاريخ ليسجل بمداد الفخر والإعجاب أن عمر بن الخطاب
رضي الله عنه أول من وضع نظاماً كاملاً للضمان الاجتماعي ، على
أساس تعاليم الإسلام ، وكان أسلوبه البالغ المدى من حيث الدقة والرافة
والحزم في تطبيقه لهذا النظام الكامل ، من أروع ما تحدث به الناس
في الشرق والغرب على مر العصور .

٢

كانت المادة الأولى من مواد هذا النظام إنشاء الدواوين وتقييد
أسماء الناس . . وفرض العطاء لهم جميعاً ، على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم ،
فلم يدع عمر جماعة من المسلمين إلا وفرض لهم من هذا العطاء ، وكانت
قاعدته تقديم قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأهل السابقة في
الإسلام فبدأ بأمهات المؤمنين — أزواجه صلى الله عليه وسلم — فكتب
لهن في عشرة آلاف درهم ، وجعل عطاء عائشة رضي الله عنها اثني عشر
ألفاً . . ولعلي بن أبي طالب خمسة آلاف ، ومثل ذلك لمن شهد بدرًا
من بني هاشم . . ثم أتبعهم بمن شهد بدرًا من المهاجرين والأنصار
وفرض لكل منهم خمسة آلاف درهم في كل سنة ، حليفهم ومولاهم
معهم بالسواء ، وفرض لمن كان له إسلام كإسلام أهل بدر ومن مهاجرة
الحبشة ممن شهد أحدًا أربعة آلاف ، وفرض لأبناء البدرين ألفين
إلا حسنا وحسينا فإنه ألحقهما بأبيهما ، وفرض لكل واحد منهما خمسة

آلاف وفرض لمن هاجر قبل الفتح لكل رجل منهم ثلاثة آلاف درهم ، ولمسامة الفتح لكل رجل منهم ألفين ، وفرض لغلمان أحداث من أبناء المهاجرين كفرائض مسامة الفتح ، وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف ، وهنا يعترض ابن الخليفة عبد الله بن عمر ويقول لأبيه : « فرضت لى فى ثلاثة آلاف ، وفرضت لأسامة فى أربعة آلاف ، وقد شهدت ما لم يشهد أسامة » . فيقول عمر : « زدته لأنه كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك ! وكان أبود أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أيك ! ! » ^(١) .

وهكذا يمضى عمر فى تعميمه لهذا العطاء . فيفرض لباقي طبقات الأمة على منازلهم وقراءتهم القرآن ، وجهادهم ، ثم يجعل من بقى من الناس بعد هؤلاء باباً واحداً ، فيلحق من جاء ، من المسلمين بالمدينة فى خمسة وعشرين دينارا لكل رجل ، ويفرض لآخرين معهم ، ويفرض لأهل اليمن وقيس بالشام والعراق . لكل رجل ما بين ألفين ، إلى ألف ، إلى تسعمائة ، إلى خمسمائة ، إلى ثلاثمائة ولم ينقص أحدا عن ثلاثمائة . . ثم يقول : « لئن كثر المال لأفرض لكل رجل أربعة آلاف درهم ^(٢) » وكان للنساء المهاجرات جميعهن نصيبهن من هذا العطاء . فرض عمر لكل منهن ثلاثة آلاف درهم ، وكتب له عمال أهل العوالى ، فكان

(٢) المصدر السابق .

(١) البلاذرى : فتوح البلدان .

يجرى عليهم القوت^(١) وكان يفرض للمنفس مائة درهم فاذا ترعرع بلغ به مائتي درهم فاذا بلغ زاده . . . وكان إذا أتى باللقيط فرض له مائة، وفرض له رزقاً يأخذه وليه كل شهر بقدر ما يصلحه ثم يزيد من سنة إلى سنة ، وكان يوصى بهم خيراً ، ويجعل رضاعهم ونفقتهم من بيت المال^(٢) .

وفي فتوح البلدان للبلاذري . أن عمر بن الخطاب ، كان يحمل ديوان خزاعة حتى ينزل قديداً فتأتيه بقديد فلا تغيب عنه امرأة بكر ولا ثيب ، فيعطيهن في أيديهن . . . ثم يروح فينزل عسفان فيفعل ذلك أيضاً حتى توفي .

وجاء إلى عمر خالد بن عرفطة العذري ، فسأله عمر عما وراءه ، ؟ فقال خالد : تركتهم يسألون الله لك أن يزيد في عمرك من أعمارهم !! ما وطئ أحد القادسية إلا وعطاؤه ألفان ، أو خمس عشرة مائة وما من مولود ذكرأ كان أو أنثى إلا ألحق في مائة وجريبين في كل شهر ، قال عمر : « إنما هو حقهم وأنا أسعد بأدائه إليهم لو كان من مال الخطاب ما أعطيتموه . . . ولكن قد علمت أن فيه فضلاً فلو أنه إذا خرج عطاء أحد هؤلاء أبتاع منه غنماً ، فجلبها بسوادهم ، فإذا خرج عطاؤه ثانية ابتاع الرأس والرأسين فجعله فيها ، فإن بقي أحد من ولده كان لهم شيء قد

(١ ، ٢) المصدر السابق .

اعتقدوه فأني لا أدرى ما يكون بعدى ، وأنى لأعم بنصيحتي من طوقنى
الله أمره ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : من مات غاشاً
لرعيته لم يرح ريح الجنة !! » .

أجل .. هكذا يقول عمر ... إن ما أعطاه للمسلمين إنما هو حقهم ؛
وأنه أسعد بأدائه اليهم .. ثم ماذا أيضاً ؟ ! إنه يرى أن في هذا العطاء
زيادة عن حاجتهم ، فيود لو أنهم يعملون على استثمار ما يزيد عن حاجتهم ،
من عطائهم ليبقى لأولادهم من بعدهم .. بمثل هذه الروح المثالية كان عمر
يهتم بأمر المسلمين ؛ وبمثل هذا العطف الخالص كان عمر يطبق ضمانه
الاجتماعي في غير من وفى غير استعلاء .. فأى ضمان اجتماعي حديث
يرتفع إلى مستوى ذلك الضمان الاجتماعي العمري ؟ ! بل أى حقوق للإنسان
— في العصر الذي يتبجح فيه متبجحون بإعلان حقوق الإنسان —
يمكننا أن نقول عنها إنها حقوق معترف بها تماماً ، كما كانت عليه الحال
في عهد عمر بن الخطاب ..

... وفي الواقع أن كل ما شوهد في هذه السنوات الأخيرة ، من مشروعات مختلفة للضمان الاجتماعي على ما اشتملت عليه من تنظيم دقيق وما اتسمت به من روح الرغبة في القضاء على الحرمان . . . في الواقع أن كل هذه المشروعات لا يمكن أن يقال عنها أنها تشبه في قليل أو كثير ما سبق أن حققه في هذا المجال (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه . قبل أربعة عشر قرناً من الزمان . . . ونظرة واحدة مقارنة إلى الضمان الاجتماعي لعهد الفاروق العظيم ، وإلى المشاريع الضمانية اليوم ، ترينا أي ضمان مثالي كان ضمان عمر . . . وأي بون شاسع كان بينه وبين هذه الضمانات العصرية . !

وأي مثالية أروع من هذا الذي أتاه عمر — في القرن السابع للميلاد — من إغداق عطائه ، حتى للمنفوس ، حين يفرض له مائة درهم فإذا ترعرع بلغ به مائتي درهم ، فإذا بلغ زاده .. وهكذا . ؟

وأي عطف إنساني أبلغ من أن يذهب الخليفة بنفسه إلى القرى البعيدة ، حاملاً معه سجلات العطاء ، فلا تغيب عنه امرأة ، بكر ولا ثيب ، فيعطينهن في أيديهن ، دون أن يفكر في أن يعهد بذلك

إلى « باحث اجتماعي » أو أى نوع من أنواع الموظفين كما هو اليوم
فى البلدان التى أنشئت فيها وزارات الشؤون الاجتماعية . ؟
حتى أهل الذمة شملهم عطاء عمر . . مرّ بشيخ منهم يسأل على
أبواب المساجد ، فقال له : ما أنصفناك ، أخذنا الجزية منك فى شببتك
وضيعناك فى كبرك ، ثم أجرى عليه من بيت المال ما يقوم بأمره .
وهذا العطاء المنظم الشامل ؛ أتراد كان كافياً فى نظر عمر لكى
ينام ويستريح ؟ !

الحق أن عمر لو أراد أن يقف عند مجرد إنشائه لديوان العطاء ،
وفرضه لما فرضه من أعطيات شملت القاصى والدانى مع ما صاحب ذلك
من رقابة شديدة صارمة كان يتولاها هو دون أن يكل أمرها إلى غيره .
الحق أنه لو أراد أن يقف عند مجرد فرضه للعطاء ، ومراقبته لتطبيقه . .
لكان بإمكان التاريخ المنصف أن يقولها كلمة مدوية : « إن عمر
قد أدّى واجبه كاملاً غير منقوص نحو ربه ونحو رعاياه أجمعين .. »

غير أن عمر ؛ فى شدة حساسيته ويقظته ، وإدراكه التام لحقيقة
ما يمكن أن يقع من خلل وإهمال فى كل مجتمع مهما كانت النظم
القائمة دقيقة ، ومهما كانت الرقابة على تنفيذها دقيقة ، إن عمر — وهو
هو هذا الرجل — ما كان يمكن أن يكفيه كل هذا العمل الضخم ،
وما كان يمكن أن يكفيه أن يقول عنه التاريخ ما يقول . . إن عمر

ما كان يمكن أن يكفيه أن يضع نظاما ، ثم يسهر على مراقبة تطبيقه
فحسب .. إنما يريد عمر شيئا عظيما وراء هذا كله ، يريد أن لا يبقى
في رعيته ذو حاجة ، ولا يبقى فيها محروم .. إن عمر ليشعر من أعماق
نفسه أنه مسئول عن كل فرد من أفراد هذه الرعية ، بل أكثر من
ذلك ، مسئول حتى عن الحيوانات التي هي في حوزة هذه الرعية ، فأى
شيء وراء هذا ، إلا التعب والعرق والدموع ؛ وأى شيء وراء هذا
إلا أن يسهر الليل والناس نائمون ؛ وأى شيء وراء هذا إلا أن يجعل
من أوليات أعماله أو أخريات أعماله في كل ليلة أن يتجول في المدينة ،
لا يدع ناحية من نواحيها دون أن يمر بها ، لعله يجد محروما نسيه الخليفة
فما خصه بنصيبه من العطاء ، أو لعله يجد ذا حاجة ، لم يكفه نصيبه من
العطاء فيمده بما يكفي حاجته ، أو لعله .. أو لعله .. ؟ ؟

ولعل حادث تلك المرأة وصبيانها وإسعاف عمر إياهم في ليلة من
تلك الليالي ، لعل ذلك الحادث من أشهر ما سجله التاريخ لعمر ..
وما أكثر ما سجله التاريخ لعمر من نظائر لهذا الحادث النبيل !

ومن هذه الحوادث أيضا : أن طلحة رأى عمر خارجا في سواد
الليل فتتبعه مستخفيا فدخل عمر بيتا ورجع فلما أصبح طلحة ذهب إلى
ذلك البيت وإذا بعجوز عمياء مقعدة .. فقال لها : ما بال هذا الرجل
يأتيك ؟ قالت : إنه يتعاهدني منذ مدة طويلة ، يأتيني بما يصلحني إلى
آخر ما قالت .. فقال طلحة ثكلتك أمك يا طلحة أعثرات عمر تتبع ؟ !

ولقد أشرنا إلى ما فرضه عمر من عطاء للمنفوس .. فاقراً هذا الحادث وهو قد يدل على السبب الذي جعل عمر يفرض هذا العطاء :

سمع عمر بكاء طفل آخر الليل ، فأتى أمه فقال : إني لأراك امرأة سوء ؛ ما لي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة ! قالت يا عبد الله : قد أضجرتني منذ الليلة ، إني أريضه على الفطام ، قال : ولم ؟ قالت : لأن عمر لا يفرض لرضيع ، وإنما يفرض للفطيم ، قال عمر : وكم له ؟ قالت : اثنا عشر شهراً ، قال : لا تعجله وذهب فصلى الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء عليه ، فلما سلم قال : « يا بؤسا لعمر كم قتل من أولاد المسلمين ! . . . » ثم أمر فنادى أن لا تعجلوا أولادكم عن الفطام فانا نفرض لكل مولود في الإسلام وكتب بذلك إلى الآفاق كافة ...

ومما قاله رضى الله عنه وكان ذلك في آخر سنة من خلافته : « إن عشت لأسيرين في البلاد حولاً فأقيم في الشام ومصر والبحرين والكوفة والبصرة وغيرها ، فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع عني ، أما هم فلا يصلون إليّ . وأما عمّاهم فلا يرفعونها إليّ » ..

وفي عام الرمادة حين أجذب الناس وجاعوا من قلة المطر ، رآه الناس لا يأكل الزيت حتى تغير لونه وكان يمد الأعراب بالإبل والقمح والزيت حتى محلت الأرياف كلها وقام عمر يدعو لهم أن يرزقهم الله

فاستجاب الله له ، فقال حين نزل الغيث : « الحمد لله ، والله لو أن الله لم يفرجها ما تركت أهل بيت من المسلمين أهل سعة إلا أدخلت عليهم معهم عدادهم من الفقراء فلم يكن إثنان يهاك من الطعام على ما يقيم واحدا . . . » .

وفي ذلك العام اشترت امرأة عمر شيئاً من السمن بستين درهما ، فقال عمر : ما هذا ؟ قالت : هو مالى ، ليس من نفقتك . فقال لها : ما أنا بذائقه حتى يحيا الناس .

وكان عام الرمادة من أشد ما مرّ على المسلمين همّاً وهولاً . . غير أن ما عالج به عمر هذه الشدة وما ساس به أمور الناس ذلك العام ، وما قام به من إشراف دقيق على التموين العام للمسلمين وما أبداه إلى جانب ذلك من تقشف إلى أبعد حدود التقشف . . كل ذلك كان له أثره فى تخفيف وطأة هذه الازمة إلى أن أراحها الله .

ومما أجراه عمر فى ذلك العام أن كتب إلى كل من أبى عبدة فى الشام وعمر بن العاص فى مصر يستغيثهما ، فأرسل إليه أبو عبدة أربعة آلاف راحلة عليها الطعام فقسمها بين أهل المدينة وما حولها من القرى . . وكتب إليه عمرو : لبيك يا أمير المؤمنين ! قد بعثت إليك بعير — أى قافلة — أولها عندك وآخرها عندى فوسع بها عمر على الناس .

وعام الرمادة كان السبب في أمر عمر لعمر بن العاص أن يحفر
خليجاً يجري به ماء النيل حتى بحر القلزم ، لنقل ما يلزم الحرمين من
المؤونة والميرة ، فخفره وسير فيه المراكب تحمل الطعام إلى الحجاز .
وقد كان عمر في عام الرمادة أعظم الناس غماً لما أصاب المسلمين من
هذه الضائقة حتى قيل عنه : لو لم يرفع الله سبحانه المحل عام الرمادة
لظننا عمر يموت هماً يأمر المسلمين .

وبعد .. فهذا هو أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه
فيما خلده له التاريخ في صفحاته البيض من إيجاده لنظام العطاء ؛ أو كما
نسميه اليوم « الضمان الاجتماعي » على اختلاف كبير واضح بين هذا
وذاك .. بين نظام عمر ، وأنظمة اليوم !

ثم هذا هو عمر . في دقة رقابته لتنفيذ هذا النظام ثم دقة تحريره
لما وراء تنفيذه إياه .. وأخيراً هذا هو عمر فيما كان يقوم به من جولاته
الليلية وفيما كان يسوس به أمور المسلمين في أوقات الشدائد والأزمات
مما يدخل كله تحت كلمة « ضمان » لا بالمعنى المعروف المصطلح عليه في
هذا الزمن الأخير .. وإنما في أوسع وأشمل ما تؤديه من المعاني الكريمة
« كلمة الضمان » .

مِنْ أَوْلَادِ عِمْرٍ

مِنْ أَوْلِيَاءِ عَمْرٍ

مفتی محمد رفیع الدین صاحب دیوبند

ما أجمل ما كتب الكتّابون ؛ ويكتبون ، عن سيرة
عمر بن الخطاب ، وعن أعماله الجليلة ذات الأثر الخالد في تاريخ الإسلام !
فبعد الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه لا أظن عظيماً
في الإسلام . أفاض المؤرخون والكتّابون في الإشادة بما كان له من
قوة الشخصية ، وخالد الآثار كما أفاضوا في الكتابة عن عمر ؛ وعن
شخصية عمر ، وعن تاريخ مجر ، وقد حفل تاريخه بكل عظيم ورائع
وجليل !

والحق لقد ملك عمر من إعجاب المفكرين والمؤلفين والباحثين
والشعراء في الشرق والغرب ما لم تملكه أية شخصية عظيمة أخرى ،
وأكبر الظن أنه لن تنفد مادة الحديث عن كل ما يتناول هذا الجانب
أو ذاك . . . من جوانب الفاروق العظيم !

ذلك لأن العظمة النفسية ذات الجوانب المتعددة ، والشخصية
الكاملة القوية ، المتأصلة فيها أدق المعاني الخيوية والخصائص الإنسانية
الراقية ، وأسمى المواهب والملكات والميول ، وأشرف النوازع إلى
الخير وإلى إتيان كل ما هو جليل وحيد مما ينفع الناس ، ويرتفع
بحياة الأفراد والجماعات على السواء . هذه العظمة لا يمكن أن يكون
الكلام عنها معاداً أو مكروراً لأن البحث فيما تتميز به من خصائص

وتنفرد به من آثار . إنما توحيه خصائص العظمة نفسها وآثارها . قبل
أن يوحيه أى حافز آخر من حوافز المناسبات . .
وما أكثر النواحي والسمات العمرية ذات الطابع الخاص .
وما أكثر ما كان يبدو عمر (أمير المؤمنين) مصلحاً ومجدداً ومنشئاً
دولة ، كأعظم ما يكون أولئك القلائل المصلحون ، وأولئك الذين
أنشأوا دولاً كبرى في القديم والحديث !

لقد كان شعاره التجديد دائماً . . لهذا لم يكن من الغريب أن
ينشأ في عهده من النظم الإدارية والمالية ما كان بعضه مقتبساً من أنظمة
الفرس والروم ، حينما اقتضت مصلحة الإسلام هذا الاقتباس .

ومن مآثر عمر ، وهو ما كان بالطبع نتيجةً من نتائج نزوعه إلى
التجديد وإلى كل ما من شأنه أن ينأى بالمسلمين عن مواطن الركود
والجمود ، أقول من مآثر عمر أو ابتكاراته كما يجب أن توصف بحق :
هذا الذى اصطلح المؤرخون فيما بعد على أن يسموه « أوليات عمر » .

فهذا الشئ الذى أسماه المؤرخون (أوليات عمر) إنما هو صفحة
ناصعة مجيدة من تاريخ ابن الخطاب لأنه عدا ما امتازت به من وصفها
بالأولية ، فقد كانت هى فى حياة عمر وفيما بعدها ذات أثر كبير فى تطور
حياة المسلمين الاجتماعية وغيرها . على توالى العهود والعصور .

فما هي هذه الأوليات؟ إنها أشهر من أن تذكر ونحن . . إذ نحاول
في هذا المقال السريع أن نشير إلى بعض هذه الأوليات فإنما نرمي إلى
أن نأتي بأمثلة منها . . في شيء من الإيضاح ، وفي شيء من التبويب ،
وفي شيء من التفسير للظروف التي أحاطت بها ، والعوامل التي أوجبت
إحداثها .

كان من أول أعمال عمر في السنة الأولى من خلافته إجلالؤه
نصارى نجران من الجزيرة العربية . بعد أن ثبت أنهم نقضوا
عهدهم ، وخالفوا ما نصت عليه معاهدتهم مع الرسول « صلى الله
عليه وسلم » وما اشترط عليهم في هذه المعاهدة من الامتناع عن تعاطيهم
للربا خصوصا وأن ضرر تعاطيهم لهذه التجارة المحرمة في الإسلام ،
ما كان يسلم منه بحال أولئك المجاورون لهم من العرب والمسلمين ،
ولم يكن يجرؤ هؤلاء النجرانيون في حياة النبي « صلى الله عليه وسلم »
أن يرتكبوا هذه المخالفة الصريحة لما عاهدوه عليه ، وإنما بدأوا
بذلك في حياة الصديق ، ولم يكن يغيب عن بال أبي بكر رضى الله عنه
وهو ذلك الخليفة البعيد النظر ما في هذا العمل من خطر على كيان الدولة
الناشئة ، وما في هذا النقض المشين لمعاهدة كفلت لهم كل حقوقهم ،
من عدوان وبغي ، ومن إسراف في الشر . . ولكنه لانشغاله في
مدة خلافته القصيرة بما هو أكبر أهمية ، وأشد خطراً . . لم ير من

الحكمة أن يتعجل الأمور ، وأن يبادر إلى إجلائهم من الجزيرة على النحو الذى تم فيما بعد فى خلافة الفاروق .

وهنا يجب أن تتأمل ؛ كيف تم هذا الإجلاء . وكيف كان عمر المملوء قلبه إيماناً وحناناً وعطفاً . . كيف كان عمر حريصاً كل الحرص على أن يكون هذا الإجلاء فى أروع صورة مثالية ، على ما كان يحتمه الموقف إذ ذاك من شدة قد تكون هى فى حالة كهذه الحالة ضرورة من الضرورات السياسية لو أن غير عمر كان هو الذى نفذ هذا الإجراء .

بعث عمر فى السنة الأولى من خلافته « يعلى بن أمية » إلى اليمن وأمره بإجلاء أهل نجران ؛ وأن يعاملهم بالرفقة ويشتري أموالهم ويخبرهم عن أرضهم فى أى أرض شاءوا من بلاد الإسلام .

ويزيد عمر فى وصيته بأهل نجران . . فيكتب إلى يعلى بن أمية : « إئتهم ولا تفتنهم عن دينهم ، ثم أجلهم من أقام منهم على دينه وأقرر المسلم وأمسح أرض كل من تجلى منهم ، ثم خيرهم البلدان وأعلمهم أنا نجليهم بأمر الله ورسوله أن لا يترك بجزيرة العرب دينان ، فليخرجوا من أقام على دينه منهم ثم نعطيهم أرضاً كأرضهم إقراراً لهم بالحق على أنفسنا ووفاء بدمتهم فيما أمر الله ، من ذلك بدلاً بينهم وبين جيرانهم من أهل اليمن وغيرهم فيما صار لجيرانهم بالريف) .

على هذه الصورة السمحة الرحيمة تم إجلاء النجرانيين من قبل عمر . .

فأى فارق عظيم بين هذا الأسلوب من أساليب السيطرة والحكم وبين
شتى أساليب الحكم الأخرى فى دول ما زالت تزعم لليوم أنها وحدها
واضعة مبادئ الحرية والديمقراطية والمساواة ؟ !

وكان إجلاء النجرانيين أول أوليات عمر ، ومن أهم أوليات عمر !

ومن أهم أولياته — وهو ما يتصل بسياسته المالية ، وحياة المسلمين
الاقتصادية والاجتماعية — أنه حين تم له فتح سواد العراق طلب إليه
المحاربون أن تقسم أراضى سواد العراق بينهم باعتبار أنهم فتحوها عنوةً
بسيوفهم . . فأبى الفاروق أن يقبل ذلك منهم ، ذلك لأنه فكر فى
أمر عظيم ذى بال . . فكر بعد أن تغيرت الظروف وبعد أن رأى
ما رأى من اتساع رقعة المملكة وتكاثر الغنائم وما تستدعيه الأحوال
الجديدة من تعديل لبعض الأوضاع ، وإحداث لبعض الأنظمة . .
فكر فى أن يلغى هذا التقسيم وأن يوجد بدلاً من ذلك تقسيماً من نوع
آخر . . تقسيماً يكون أبلغ وأبعد فى تحقيق فكرة المساواة . . !

وكان رأى فريق كبير من أقطاب المسلمين إذ ذاك أنه لا مانع
من تقسيم هذه الأراضى ، غير أن عمر أبى ذلك بعد أن فكر طويلاً فى
هذا الأمر الجلل . وبعد أن اقتنع أتم الاقتناع بأن المصلحة العامة
للمسلمين تقضى عليه بهذا الإباء . .

وقف عمر أمام أولئك الأقطاب وعلى رأسهم عبد الرحمن بن عوف
رضي الله عنه وقفته الخالدة المعروفة ، وتحداهم ؛ وقال لهم قولته المشهورة :
« فكيف بمن يأتي بعدكم من المسلمين فيجدون الأرض قد اقتسمت
بمن عليها وحيزت إرثاً عن الأباء . . ما هذا برأى ! »

ويطول الحديث ، ويطول النقاش ، ويستمر الجدل بين عمر من
جانب . . وبين أكترية الزعماء من جانب آخر . . حول هذا
الموضوع . . وأخيراً ينتصر عمر بعد لأي ، وبعد طول إقناع ، وبعد
استمرار في الأخذ والرد ، ويوافق المسلمون بالإجماع على ما ارتآه عمر
من إبقاء هذه الأراضي مملوكة لأصحابها من السكان الأصليين ، بعد
أن فرض على رؤوسهم الجزية وعلى أرضهم الخراج .

وعلى هذا ، كتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص بعد أن تم فتح
العراق : « أما بعد فقد بلغني كتابك تذكر أن الناس سألوك أن تقسم
بينهم ما أفاء الله عليهم ، فإذا أتاك كتابي هذا ، فانظر ما جلب عليه
أهل العسكر بخيلهم وركابهم من مال أو كراع فأقسمه بينهم ، بعد
الخمس . . واترك الأرض والأنهار لعمالها فيكون ذلك في أعطيات
المسلمين ، فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن يبقى بعدهم شيء . »
وكان أول ما بدأ به عمر بعد أن أتم الله على يديه ما أراده من
إحداث لهذا النظام . . أن فرض نظام العطاء للمسلمين كافة فأمر

باحصاء الناس ، و بدأ بالعباس ومن يليه من قرابة النبي صلى الله عليه وسلم
ثم بأهل السابقة والذين شهدوا المشاهد ، وشاركوا في الفتوح على حسب
درجات كل منهم في الجهاد ، ثم بعامّة المسلمين .

ومن أوليات عمر : إحدائه للتاريخ الهجرى فقد كان العرب إلى
أوائل عهد خلافته لا يؤرخون وكانت أحداثهم الشهيرة كحرب الفجار ،
أو حادثة الفيل ، أو غيرها . . . هي الأساس الذى عليه يعولون فى توقيت
أحداثهم ووقائعهم كبراهها وصغرها ، فإذا ولد مولود قالوا إنه ولد فى عام
الفيل مثلاً أو فى العام الذى تلا ذلك العام ، أو فى العام الذى وقعت
فيه حرب كذا وهكذا . . . إلى أن جاء الوقت الذى رأى فيه عمر
بنظرة الثاقب ، وعبقريته الملهمة أنه لا بد من إيجاد نظام للتوقيت بعد
أن تضخمت الدولة ، واحتاج الأمر فيها إلى الدقة فى كل شىء . .
فما هو إلا أن جمع — على عادته — كبار الصحابة واستشارهم فى هذا
الأمر . وكان قد سألهم من أى يوم نكتب التاريخ ؟ فأشار عليه
على بن أبى طالب « رضى الله عنه » بأن يجعل التاريخ من السنة التى
هاجر فيها الرسول إلى المدينة ، ففعل ، وكان هذا فى السنة السادسة
عشرة للهجرة . . .

وطببعي أن يعقب إيجاد هذا التوقيت ، حادث آخر من نوعه ،

له صلته الوثيقة ، بتركيز أعمال الدولة وتنظيم أمورها المالية على وجه الخصوص ، فلقد أحدث عمر لأول مرة في تاريخ الإسلام « نظام الدواوين » على مثال ما كانت عليه الدواوين في دولتي فارس والروم . وشيء آخر أيضاً أحدثه عمر ، وجاء متمماً لما أحدثه من قبل ، من وضعه للتاريخ الهجري وتدوينه للدواوين ؛ ذلك هو ضربه للنقود .

فالعرب في عصرهم الجاهلي ، ما كانوا يعرفون لهم نقوداً خاصة ، ولأمر ما . . أو لارتباط تجارتهم بما كان يتأخهم من الأقطار الخاضعة للنفوذ الفارسي والرومي . كانوا يتعاملون فيما بينهم بالنقود الفارسية والرومية ، من درهم ودينار ، واستمر هذا الوضع إلى عهد النبوة وعهد الصديق وأوائل عهد عمر ، ثم في السنة الثامنة عشرة ، أمر عمر بضرب الدراهم على نقوش الدراهم الفارسية ، وزاد في بعضها (الحمد لله) وفي بعضها (محمد رسول الله) .

وفي عهد عمر مصرت « البصرة » و « الكوفة » الأولى في السنة الخامسة عشرة ، والثانية في السنة السابعة عشرة هجرية . وفي عهده أنشئت دور الضيقات ، قال ابن سعد : « اتخذ عمر دار الدقيق فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما تحتاج إليه ليعين به المتقطع ، ووضع فيما بين مكة والمدينة في الطريق ما يصلح من ينقطع

به ، وفي بعض الروايات أنه فعل مثل ذلك أيضاً بالطريق بين الشام
والحجاز»^(١) .

وعمر أول من عين القضاة ورتب لهم الرواتب . وأول من عس بالليل
وأول من حمل الطعام من مصر إلى المدينة بجرأ ، وأول من أقام والياً
للحسبة وأول من شق الترع وأقام الجسور وأول من وضع المرباطين
من الجند لحماية الثغور . . إلى غير ذلك من الأوليات . .

(١) يقول الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد في كتابه « ذو النورين : عثمان
ابن عفان » صفحة ١٢١ : على أن عمر يصح أن يسمى مؤسساً لديوان الوقف
الخيري على الوحة الذي نعهده الآن ؛ فقد أنشأ بيت الدقيق لإغاثة الفقراء الذين
لا يجدون الطعام ؛ وأصاب قبل خلافته أرضاً بخير ؛ فاستشار النبي عليه السلام
فيها فاستحسن له أن يحبس أصلها ويتصدق بربعها ؛ فجعلها عمر لا تباع ولا توهب
ولا تورث ؛ وينفق منها على الفقراء والغزاة وغيرهم ؛ ولا جناح على من وليها
أن يأكل كل بالمعروب ويطعم صديقاً فقيراً منها ...

العناصر النفسية في سياسة العرب . هو كتاب صغير الحجم ؛
جليل الموضوع . ألفه الأديب العربي الكبير الأستاذ شفيق جبرى^(١) .

فإذا كان كل كتاب يقرأ من عنوانه — كما يقولون — فما من
شك أن عنوان هذا الكتاب يعبر عن موضوعه أوضح تعبير !

في هذا الكتاب تفسير لبعض حوادث التاريخ الإسلامى .
في ضوء العوامل النفسية . وقد يكون هذا أول بحث من نوعه
في الدراسات الحديثة . فلا أعلم باحثاً تاريخياً قبل الأستاذ جبرى طرق
مثل هذا البحث في اللغة العربية معتمداً على التحليل النفسى . والعوامل
النفسية ؛ في الحكم على حوادث التاريخ .

وليس أولى من أن نرجع إلى المؤلف الفاضل في إثبات أهمية
العامل النفسى في تحليل الحوادث التاريخية . وتعليل كل أنواع السلوك
في الحياة ؛ يقول الأستاذ جبرى :

« لقد تؤثر في مصير الناس أمور شتى . ولكن أعظم هذه الأمور
سلطاناً إنما هي العوامل النفسية . ولو تذكرنا التعبير الذى ولدته هذه

(١) من سلسلة « اقرأ » نشرته دار المعارف بمصر .

الحرب وهو « حرب الأعصاب » لعرفنا حق المعرفة أن لعلم النفس منزلة عظيمة في الحروب .

ويقول بعد هذا :

« على أنه قد استطاع بعض الرجال في خلال التاريخ أن يعرفوا ما نسميه « روح الجماعات والأفراد » وكانت هذه المعرفة سبب نجاح سياستهم وقد طبق علم النفس في الحروب فكان له شأن عظيم » إلى أن يقول :

« أما في السياسة فإنه يعلمنا الفن الصعب الذى تقود به الجماعات والأفراد ، ونحول به عواطفهم ، وقد تمثل « لويون » فى هذا الباب برواية من روايات شكسبير ، فمن طالع هذه الرواية استطاع أن يجد فيها دليلاً واضحاً على ذلك فى الخطاب الذى ولده شكسبير على لسان انطونينوس لما استشار الجماهير أمام جثة قيصر . »

« لا شىء أصعب من سياسة الناس ، لأن الرجل عادة مركب من شخصيات شتى ، لا تظهر إلا فى أحوال معينة وما هذا الثبات الذى نراه فى شخصية كل واحد منا إلا شكل ظاهر لا غير ، تثبت هذه الشخصية بثبات أحوال معينة ، فإذا تغيرت هذه الأحوال تغيرت شخصية الرجل فالهادى قد يصبح ثائراً ، والرقيق قد يصبح قاسياً ، والفاضل قد تنتثر فضائله ، فإذا جهل رجال السياسة هذه الخفايا النفسية ، فإن جهلهم يؤدى إلى الإخفاق فى سياستهم » .

« لا أجد سبيلاً إلى التوسع في هذه المقدمة ، وإنما حسبي من كل ما ذكرت أن أشير على سبيل الإيجاز إلى أن السياسة المجردة من علم النفس ؛ إنما هي سياسة مفشقة . . . بقي على أن اذكر نماذج من سياسات العرب التي نجحت أو التي لم تنجح ، وكان لنجاحها أو لإخفاقها عوامل متفاوتة ، أقف منها في هذا الكتاب على العامل النفسى وحده دون الإشارة إلى غيره » .

وإليك أنموذجاً من أسلوب المؤلف في البحث ، وأسلوبه في تفسيره للحوادث والسلوك ، في تحليله لموقف النبي صلى الله عليه وسلم مع أبي سفيان بن حرب ، عميد البيت الأموى ، يقول المؤلف :

« أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس فكان آخر من دخل عليه أبا سفيان بن حرب فقال : يا رسول الله لقد أذنت للناس قبلى ، حتى ظننت أن حجارة الخدمة ليؤذن لها قبلى .. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما والله إنك والناس كما قال الأول : كل الصيد فى جوف الفرا ، أى كل شئ لهؤلاء من المنزلة فإن لك وحدك مثل ما لهم كلهم ! .

• قد تظن أن هذا الخبر لايد لنا إلا على منزلة أبي سفيان وحدها ؛ ولكن فيه عنصراً آخر من عناصر سياسة الرسول ؛ إنا نعلم أن أبا سفيان كان سيداً من سادات قريش فى الجاهلية كانت عنده العقاب رابة

قريش ، وإذا كانت عند رجل أخرجها ، إذا حميت الحرب فإذا
اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب ، وإن لم يجتمعوا على أحد رأسوا
صاحبها فقدموه ، وكان رأسا من رؤوس الأحزاب في الاسلام إلا أن
سيدنا محمداً لما قال له : كل الصيد في جوف الفرا ، لم يقصد إلى الدلالة
على مكانته وحدها ، وإنما خرج بهذا الكلام من مقام حرج فإن قول
أبي سفيان . حتى ظننت أن حجارة الخدمة ليؤذن لها قبلي ، يصور
أوضح تصوير ثورة أعصابه ، وهيجان نفسه ، وشدة غضبه ومن يدرى
ما كان يجر إليه هذا الكلام ، لو لم يسرع إلى التخفيف من هذه الثورة
والغضب ، وقد رأى سيدنا محمد في وجه أبي سفيان هذا كله ، وعرف
أن من وراء هذه الثورة شيئاً لا تحمد عقباه فتلا في الأمر بمحاسن حكمته ،
ولطائف فطنته فإن قوله كل الصيد في جوف الفرا قلب أبا سفيان
من حال إلى حال في أقل من رد النفس ، فقد قلبه من الغضب إلى
الرضى ، ومن الثورة إلى الهدوء ، ومن العبوس إلى الطلاقة ، ومهما يقل
الرسول لأبي سفيان بعد هذا الكلام فقد كان أبو سفيان مستعداً
لقبوله ، لأن ثورته قد هدأت ، وغضبه قد سكن ، ولم ينصرف فكره
إلا إلى هذه المنزلة التي رده إليها سيدنا محمد . وأسلوب مثل هذا الأسلوب
في معاملة الناس الخاصة ليس بالأمر الهين ، فليس بالأمر اليسير أن يدخل
عليك رجل يستشيط غيظاً ، ويتلظى غضباً ، وترى هذا كله في وجهه
ثم تخرجه في أقل من لحظة من حال إلى حال ، وذلك بكلمة تهتدى إليها

في حينها ، وتضعها في موضعها ، فتكون هذه الكلمة بمنزلة الثلج الذي يوضع في كبد المحموم » .

« هذه غاية المهارة في معرفة أسرار النفوس ، وعوامل الغضب والرضى ، والثورة والهدوء وبمهارة مثل هذه المهارة نجحت سياسة سيدنا محمد في جماعة فيهم أمثال أبي سفيان وما كان نجاحها بقليل » .

وهكذا يمضي المؤلف في التحليل وهكذا يفسر لنا على طريقته التي رسمها ؛ ذلك الموقف الرائع من مواقف النبي الكريم مع كبير رجالات قريش ، أبلغ تفسير ، إنه التفسير الواقعي الصحيح ، ولقد يمر على هذا الحادث وأمثاله كثيرون من الناس دون أن يبدو أى التفات منهم إلى مثل هذا المعنى والسبب أن تاريخنا كله قد دون بعيداً عن الدراسات النفسية ، وقبل أن تظهر وتتبلور بطبيعة الحال هذه الدراسات في عصرنا الحاضر ، فما أشد حاجتنا اليوم إلى أن نعود إلى دراسة أهم الأحداث في تاريخ العرب والإسلام على أساس من علم النفس والتحليل النفسى .

ومن جميل صنع المؤلف في كتابه أنه لا يكتفى بالتحليل الخاص ،
 أى تحليل الحادثة وحدها بل هو غالباً ما يتدرج من الخاص إلى العام ،
 إنه يشير إلى الحادثة ويعلق عليها ثم ينتقل إلى التعليق الشامل . .
 التعليق الذى يتصل بالأحوال العامة للشخصية التى يتحدث عنها ،
 وكأنه بهذا يريد أن يعود بالقارىء إلى العنصر النفسى الأصيل ،
 أو مفتاح الشخصية ، كما يقول بعض الكاتبين .

فهو فى حديثه وفى تحليله لموقف الرسول الكريم مع أبى سفيان
 ينتقل بنا إلى الحديث العام عن سياسة الرسول بصورة عامة وعن طابعها
 النفسى الأصيل ، فيقول :

« . . . وما أظن أن أحداً بلغ من معرفة النفوس ما بلغه سيدنا
 محمد ، فقد نقل بيئة من عالم إلى عالم ، أدخل على عالمه الجديد أفكاراً
 وعواطف لا عهد لعالمه القديم بمثلها ، فليس بالأمر السهل أن ينشأ
 فى بيئة معروف أمرها فى العصبية والنخوة ، كلها سادات طبعوا على
 السيادة ، فيقبح أفعالهم ، ويذم آراءهم ، ويسفه أحلامهم ، ويزيل
 دياتهم ، ويبطل سنتهم ، ليس بالأمر السهل أن ينزع بالناس عما ألفوه
 من الديانات إلى دين حديث لم يألوه ، فإن دياناتهم القديمة قد رسخت

في قلوبهم ، وتمكنت من ضمائرهم ، وصارت جزءاً من لحمهم ودمهم
وروحهم ، ولكن سيدنا النبي خبر خلال رجاله العرب وامتنحن نفوسهم
وطبائعهم فسهلت له هذه الخبرة جليل عمله الذي أقدم عليه ومهدت
سبيلاً إلى التوفيق فيه ، ولقد اجتمعت له أسباب كثيرة هيأت له نجاح
دعوته ولكن الذي يهمننا في هذا المقام إنما هي الأسباب النفسية وحدها ،
فقد تجلت قدرته على خبرة النفوس في كثير من أعماله ، ولا أرى
بي حاجة إلى ذكر هذه الأعمال كلها ، وحسبي ما أشرت إليه من اهتدائه
إلى تحويل بيئته من ديانة إلى ديانة فهذا العمل وحده دليل قاطع على
عظمة سياسته النفسية ، لقد دخل الأمور من أبوابها ، ولو كان يجمل
نفوس أهل البيئة التي عاش فيها لما استفاضت دعوته في الآفاق .
ولا يشبهه أحد من رجال العرب في سياستهم النفسية مهما تكن قدرتهم
على هذه السياسة .

وفي الكتاب إشارات صائبة ؛ وموضات من هذا القبيل في حديثه
عن يوم السقيفة ، وموقف الصديق الحاسم في ذلك اليوم المشهود ، وكذا
عن موقفه الحازم مع أهل الردة ، ولعل حديثه عن عمر بن الخطاب
في مسألة الشورى هو الذي يستوقف النظر بل هو ما يخالفه فيه على
خط مستقيم .

فهو لا يستصوب ما ذهب إليه عمر رضي الله عنه في جنوحه إلى
الشورى وعدم استخلافه أحداً من بعده كما فعل أبو بكر الصديق

رضى الله عنه ، يشير المؤلف الكبير ، فى غلطة قلمية ليست هينة
بالمقاييس إليه ؛ إلى إن هذا التصرف غلطة نفسية من الفاروق العظيم !

وحيثما يريد أن يقارن أحداً بعمر فى هذا المقام لا يجد من يقارنه به
سوى معاوية بن أبى سفيان . ويقول عنه : « وقد أدرك معاوية هذه
الغلطة ، ومثله لا يكاد يفوته شئ من أسرار السياسة النفسية » .

ونحن نرى أن مثل هذه المقارنة بين جر و بين معاوية فى جنوح
عمر إلى عدم الاستخلاف وتركه أمر تعيين الخليفة من بعده شورى
للمسلمين وذهاب معاوية إلى عكس هذا التصرف . . نقول إن هذه
المقارنة لا محل لها هنا ، لأن وجه الشبه فيها معدوم ، ولأنه يوجد فارق
كبير — وهذا ما نعتقد أن الأستاذ جبرى نفسه لا يشك فيه — بين
العهدين : عهد عمر ، وعهد معاوية . فليس الفارق هنا فارقاً بين سياسة
عمر من حيث هى ؛ وسياسة معاوية من حيث هى . . . وإنما
الصحيح أن نقول إن هذا الفارق بين السياستين منشأه الفارق بين
العصرين ، إنه الفارق بين عصر عمر وعصر معاوية — كما قلنا —
أو هو بتعبير أدق : الفارق بين عصر الراشدين وعصر الأمويين !

وقد كان من السهل على المؤلف الحصيف أن يقرب المسافة .
فيدعم رأيه فى تحييد الاستخلاف بما فعله الخليفة الأول . وهنا قد تكون
المقارنة أقرب إلى الصواب . .

لكن ما رأيه في أن موقف سيدنا عمر في هذا الصدد كان يختلف
كل الاختلاف عن موقف الصديق أيضاً !
وما رأيه إذا أوردنا الدليل على أن التصرف الذي تصرفه عمر
رضي الله عنه في عدم الاستخلاف إنما كان ناشئاً عن خبرة نفسية . .
وليس هو بالغلطة النفسية . كما شاء أن يقول . . .
ما رأى المؤلف الفاضل إذا أوردنا هذا الدليل من نفس كلامه .
فهو يقول :

« لم يخل استخلاف عمر على المسلمين من كثير من الحيرة والتردد
فهو لم يشأ أن يحمل المسلمين حياً وميتاً . ثم رأى أنه إذا استخلف فقد
استخلف من هو خير منه يعني أبا بكر . وإذا ترك الأمر فقد تركه من
هو خير منه يعني النبي . ثم رأى أنه لو أدرك أبا عبيدة بن الجراح
لاستخلفه ولو أدرك خالد بن الوليد لولاه . وفي هذا كله كثير من الحيرة .
ثم رأى في علي فكاهاة . وفي طلحة زهواً ونخوة . وفي عبد الرحمن بن
عوف صلاحاً مع ضعف . ورأى سعداً صاحب مقنب وقتال . لا يقوم
بقرية لو حمل أمرها . ورأى أن الزبير لقيس . ورأى أن عثمان لو ولى
الخلافة لحمل قومه بين معيط على رقاب الناس . ثم سأل الناس أن يدلوه
على بر نقي يوليه . ثم صح عزمه على أن يستخلف نفر الذين توفي
رسول الله وهو عنهم راضٍ . فجعل الخلافة شورى بين هؤلاء الستة

من المهاجرين الأولين . وهم على وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص « اهـ .

ففي مثل هذا الموقف . . ترى ماذا يصنع عمر رضى الله عنه ، ورأيه في من يصلحون للترشيح لخلافه المسلمين هو رأيه الذى نقله المؤلف في هذه السطور ؟ إنه رأى قد يدل على الحيرة والتردد . — كما قال — ولكنه لا يدل على الغلط النفسى . . كل ما يمكن أن نقوله أنه تصرف اضطرارى لجأ إليه الخليفة الشهيد مرغماً أملاًه عليه الظرف العصيب . لقد فوجئ عمر بذلك الاعتداء الوحشى عليه . . فأين الفرصة الكافية في مثل هذا الموقف الرهيب ؟ أين الفرصة الكافية للتفكير في مسألة المسائل . . . أو البت والإسراع في ترشيح خليفة معين ؟ وإذن فأى عمل أصح — في هذه الحال — من اللجوء إلى الشورى . واختيار نخبة من أجلاء الصحابة الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض . لى ينتخبوا من بينهم في أيام ثلاثة من سيكون بعده خليفة المسلمين ؟

لو كان هذا التصرف من عمر (غلطة نفسية) لكنا رأينا من نتائجه غير ما رأينا ، من اتفاق كلمة المسلمين حينما أعلن عبد الرحمن بن عوف في اليوم الثالث من هذه الأيام انتخاب سيدنا عثمان من بين الأقطاب الخمسة الآخرين . . .

ولقد أشار الأستاذ إلى تشاح أصحاب الشورى . على الخلافة ومن المؤكد أنه عند تقرير كل أمر خطير كهذا لا معدى من أن تختلف الآراء...

فإذا قال قائل هنا عما حدث في عهد عثمان رضى الله عنه مما أدى إلى الفتنة الكبرى ، فلا يمكن أن تقول إن هذا من نتائج الشورى التى أرادها عمر ، وإنما الحق أن نقول إن ما وقع فى عهد الخليفة الثالث إنما كان نتيجة عوامل أخرى لاعلاقة لها البته بالشورى فالنتيجة المتوخاه من الشورى قد حصلت على أتمها بمجرد أن اتفق المسلمون على انتخاب الخليفة الجديد ، وقد كانت هذه النتيجة — كما رأينا — موفقة كل التوفيق !

لقد أشرنا إلى الفارق بين عصر عمر وعصر معاوية بن أبى سفيان ..

وهذا الفارق يتضح كل الوضوح عندما ننظر إلى كل ظاهرة ، أو كل حادث من حوادث كلا العصرين .. فعلى الرغم من كل ما يقال عن بدء ظهور العصبية القبلية فى عصر عمر ، وهى الظاهرة التى كانت من أشد ما منى به المسلمون ، وكانت فى عصر معاوية وخلفائه من بعده أكثر وضوحاً ، وبروزاً .. على الرغم من كل ذلك فقد كان العصر العمرى بريئاً إلى حد كبير من نعة تلك العصبية الجاهلية !

كان المسلمون في عصر عمر أقوى إيماناً ، وأنقى ضميراً ، وأكثراً انصياعاً للحق ، وبعداً عن الهوى ، وأقرب إلى وحدة الرأي ، وأعظم تقديراً للصالح العام ، واستمساكاً بالدين . وإذن فقد كانت الشورى التي أرادها عمر تتلاءم كل التلاؤم مع نفسية المسامحين واستعدادهم إذ ذاك فلم يكن منها أى خطر على وحدتهم . . لقد كان اختيار عمر للشورى توفيقاً من الله لا شك فيه ، وفي هذا الاختيار أكبر الدلالة على بعد النظر . وعلى الخبرة النفسية !

وما من شك في أنه لو أراد معاوية أن يجعل الأمر شورى من بعده على النحو الذى صنعه عمر . . ما من شك في أن النتيجة هنا كانت تختلف . . إن روح العصر هى التى أوحى لكل من الرجلين العظيمين أن يمنح إلى ما جنى إليه ^(١) .

(١) قبل سنوات كتبنا هذا البحث . . ومنذ شهرين اثنين أى في أبريل ١٩٥٤ أصدر الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد كتابه المنتظر من وقت طويل عن الخليفة الثالث عثمان بن عفان فاذا بالأستاذ الباقد يبحث قضية الاستخلاف هذه بحثاً مستفيضاً ممتعاً جاء فيه :

« . . . على هذا الوجه أبرأ عمر ذمته من قضية الاستخلاف وعلى هذا الوجه نرى عقل رجل من أولئك الرجال الأفذاذ يعمل فيعرف ما يصلح أن يعمل في تفصيلات هذه القضية التى واجهته بجميع عقدها ومخاطرها لأول مرة في حياته وهو يفارق تلك الحياة ؛ يقلبها على جميع الوجوه ويفرض لها جميع النتائج ويطلق أبوابها فيفتح منها ما ينبغي أن يفتح ويغلق ما ينبغي أن يغلق ويلقى من جانب ما يخشاه من جانب ؛ ويختار الرجال ثم يختار الخطط على كل احتمال من إحسان أو إساءة ؛ ومن وفاق أو شقاق ؛ ويفعل ذلك في غمرات الموت بين صرعات الألم من جراحه القاتلة ؛ ويعالج به أصراً لم يعالج من قبل على هذا المثال أو على مثال غيره ؛ وكانما هو من خبراء الاختصاص في دساتير الحكم درسها =

وأخيراً ؛ وقبل أن أختم هذا البحث ؛ لابد لي من أن أشير إلى أن كتاب « العناصر النفسية في سياسة العرب » كتاب ممتع حقاً ، ولم كنت أود أن استطرد إلى بعض فصوله الأخرى لما تضمنته من نظرات صائبة . وتحليلات نفسية . أجاد فيها المؤلف كل الإجادة . ومن هذه الفصول : « خديعة المصاحف » و « خطبة زياد في البصرة » و « عبد الملك ابن مروان » و « الحجاج » و « موسى بن نصير » و « سياسة المال » .. فحسبي — وقد طال هذا البحث — أن أشير إليها .. وحسبي بعد كل ما أشرت إليه أن أحيل القارئ الأديب إلى الكتاب نفسه . لأنه لا ينبغي أن تفوت مطالعته أي عربي .. إنه من تلك الكتب « الموجهة » .. والتي هي بما ينبعث من بين سطورها من ومضات التفكير القومي الرحيب ؛ خبر ما يغذى الوعي العربي والإسلامي الحديث . . .

== وتلقى دروسها من أسانئدها الذين سبقوه إلى تقريرها وتدوين وقائعها وموافعها ؛ وجلس ليعاين ويقابل ؛ وبطابق ويوافق ؛ ومن حوله الأعوان يابون ما يطلب ويستدركون ما يفوت ؛ وينتهون في سعة من الوقت إلى قرارهم وهم وادعون آمنون أن يصيبهم مكروه من مغبة ما قرروه . . .

ثم يقول الأستاذ العقاد :

« فمن سأل عن معجزات العقائد في كواكب السماء أو أطوار الأرض فهذه معجزة المعجزات التي تأتي بها العقيدة في نفس الإنسان : تخرجه من جوف الصحراء كنفوأة لأعضل العضلات بخلقه ؛ وكفوءاً لها بعقله ؛ وكفوءاً لها بعمله ؛ ونمطاً من الشعور بالتمعات لا يحارى . . . ونمطاً من القدرة على النهوض بها يطول الزمن بانباء الحضارات قبل أن يبتغوه ؛ وقبل أن يعرفوه »

« ذو النورين : عثمان بن عفان صفحة ١٣٨ »

مزايًا ثلاث تبدو واضحةً كل الوضوح في هذا الكتاب الجليل ،
وقد وضعه باللغة الإنجليزية أولاً مؤلفه العلامة الدكتور فيليب حتى ،
أستاذ آداب اللغات السامية ورئيس دائرة العلوم الشرقية بجامعة برنستون
بأمريكا ونقله أخيراً إلى اللغة العربية بمعونة نفر من رفاقه الفضلاء ،
وهم بدورهم استعانوا — كما يقول المؤلف في المقدمة — بترجمة كتابه
المطول في هذا الموضوع . .

أولى هذه المزايًا ، الشمول ، فقد أوفى على الغاية في تدوينه لأهم
الأحداث البارزة ذات الأثر في نشوء وتطور الحياة العربية ، والحضارة
الإسلامية ، وبخاصة ما كان منها متصلاً بالنواحي الاجتماعية والثقافية .
ثم أسلوبه العلمي والأدبي معاً . وأخيراً روح الانصاف المتجلية
في معظم ما يسوقه المؤلف من آراء خلال سرده للحوادث. وتحليله للرجال !
وقد وضع هذا الكتاب في الأصل في لغته الإنجليزية بقصد
إطلاع القراء الأمريكيين والأوربيين على حقائق التاريخ العربي .
ومن هنا تأتي فائدته . خصوصاً في هذا العهد الأخير ، وأعني بعد أن
انتهت الحرب العالمية الثانية . . . وأبانت الحوادث السياسية في معظم
المواقف . . بأن أكثر من وضع لهم هذا الكتاب — إن لم نقل كلهم —
كانوا بعيدين كل البعد عن معرفة أى حقيقة تاريخية أو اجتماعية
أو سيكلوجية عن الأمة العربية !

ثم أن قيمة هذا الكتاب من الوجهة العلمية ، ومكانة مؤلفه المرموقة في العالم العربي ، وفي العالم الجديد ونصاعة آرائه وأحكامه التاريخية ، لا شك أنها تزيد من فائدة الكتاب لمن يقرأونه من أبناء الشعوب العربية .

ولعل من أمتع ما نراه ماثلاً في هذا الكتاب مواقف المؤلف ، وهو يتحدث إليك عن مجالى العظمة والعبقرية والفخار في عصور العرب الذهبية مُشيداً بجلال أعمالهم في عبارات موجزة مشرقة إن دلت على شيء ، فعلى روح الانصاف التى أشرنا إليها . ثم على هذا الشعور العربى الأصيل ... وليس هذا الشعور الأصيل غريباً من المؤلف العربى الكبير . فانظر إليه فى الفصل الذى عقده عن مكانة العرب فى التاريخ ، يتحدث إليك عن تراث العرب الثقافى والعمرانى فى هذه العبارات :

« . . . ولم يقتصر ماخلده العرب فى تاريخ العصور على إنشاء دولة بل تعدى ذلك إلى الثقافة والعمران ، فلقد ورث العرب المدنات القديمة التى ارتفعت معالمها ، على شواطئ الرافدين وعلى سواحل البحر الأبيض المتوسط الشرقية ، وفى وادى النيل ، واقتبسوا عن الأغريق والرومان القيم من آثارهم ثم أضافوا إليه كثيراً مما ابتدعوه ، ومن ثم نقلوه إلى أوربا فى عصورها المظلمة ونشروه فيها فكان من جراء ذلك أن بزغ

في أوروبا فجر تلك اليقظة العلمية التي لم يزل العالم الغربي — ومنه أمريكا —
يتمتع حتى اليوم بحسناتها . . . »

« وليس من شعب آخر قام في القرون الوسطى بما قام به العرب
في سبيل تقدم البشرية فبينما كان فلاسفة العرب مكبين على دراسة
تأليف أرسطو كان شرلمان ورجال بطانته يحاولون إتقان كتابة أسمائهم .
وبينما كان علماء العرب في قرطبة يترددون على خزائن كتبها السبع
عشرة ، وفيها خزانة حوت ٤٠٠٠٠٠٠٠ مجلد ويعودون إلى بيوتهم
فيتنعمون بالاستحمام في حمامات بلغت الغاية في النظافة والأناقة كان
الأساتذة والتلامذة في جامعة أكسفورد يستنكرون الاستحمام ،
ويحسبونه من ملذات العيش الشهوانية التي يجب الترفع عنها . . . »

وفي فصل « العلوم والآداب » يتحدث إليك عن أثر العرب في نقل
الفلسفة والأدب والعلوم وعن تكييفهم لها ، وتجديدهم فيها وتحويرهم
إياها إلى ما يوافق حاجاتهم الخاصة وطرق تفكيرهم فيجىء قوله فصل
الخطاب في هذه القضية . . يقول :

« لم يكتف العرب بالنقل والتقليد بل تعدوهما إلى التكييف
والتجديد فهم لم يكتفوا باستيعاب تراث الفرس الفنى وتراث اليونان
العالمى على ما كان عليه بل حوروا التراثين بموجب حاجاتهم الخاصة
وطرق تفكيرهم . »

وهذا الذى يقوله الدكتور حتى ، معروف ومسلم به ، غير أنا لانزال
نشاهد من بعض متعصبة المستشرقين من يصرون على أن العرب
لم يكونوا سوى مجرد ناقلين للفلسفة والعلوم ، وأنه لم يكن لهم أى ابتكار
فى هذا الميدان . . .

والدكتور حتى ، لا نطن أنه يتهم بالتحيز ، على كل حال !
ويحضرنا بهذه المناسبة ما قرأناه للأستاذ عباس العقاد فى هذا الصدد
فى كتابه « أثر العرب فى الحضارة الأوربية » إذ يقول :
« ويخطئ من يرى أن كل ما تركه فلاسفة المسلمين قد نقلوه
قبل ذلك بحروفه عن فلاسفة اليونان ، فقد وجد من الفلاسفة الإسلاميين
من تصرف واستقل برأيه كما وجد منهم من وقف عند النقل والتفسير ،
وأكثرهم قد تلقوا مذاهب الأولين على أنها عمل قابل للتعديل والتفنيد ،
وليس على أنها قضية مسامة لا يأتىها الباطل بحال . »

ويقول المؤلف عند كلامه على الطب : « وخطا العرب فى هذا
العصر — يقصد العصر الذى يبتدأ من النصف الثانى من القرن التاسع
الميلادى — خطوات واسعة فى الاستدواء بشتى العقاقير فهم أول من
أوجد حوانيت لبيع الأدوية ، وأقدم من أسس مدرسة للصيدلة ،
وصنف فى الأقرباذين رسائل . . . وكان يفرض على الصيادلة والأطباء
منذ زمن المأمون والمعتصم اجتياز امتحان خاص ، وعلى أثر سوء

تصرف جرى من أحد الأطباء أو عز الخليفة عام ٩٣١ م إلى سنان بن ثابت بن قرّة وهو طبيب مشهور إلى أن يمتحن كل الأطباء ويعطى الإجازات الطبية لمن توفرت فيهم الأهلية فقط فاجتاز الامتحان في بغداد ما ينيف على ثمانمائة وستين وبذلك تخلصت العاصمة من الدجالين . . . ومما يدل على العناية بصحة أهل الريف ما أمر به على بن عيسى الوزير في عهد المقتدر من إرسال بعثات من الأطباء تحمل الأدوية وتطوف أنحاء البلاد تعالج المرضى والمعوزين ، وكانت بعثة من الأطباء تتفقد السجون يوميا فمن هذه الحقائق يظهر لنا اهتمام أولياء الأمر بالصحة العامة وهو أمر لم يكن مألوفاً في باقي أقطار العالم آنذاك ... » .

ويتجلى إنصاف المؤلف رائعاً حينما يعرج إلى قصة إحراق مكتبة الاسكندرية التي يتداولها بعضهم ناسبين أمراً إحراقها إلى عمر بن الخطاب ... يقول الدكتور حتى عن هذه القصة : « إن مصدرها الخيال لا الحقيقة » .. إلى أن يقول : « والواقع أن مكتبة البطالسة أحرقها يوليوس قيصر سنة ٤٨ ق . م وأن مكتبة أخرى نشأت من بعد يشار إليها باسم المكتبة الصغرى دمرت سنة ٣٨٩ م على أثر أمر أصدره الامبراطور الروماني ثيودوسيوس . وإذن فلم تكن هنالك مكتبة تستحق الذكر عند الفتح العربي .

وقد أشار المؤلف إشارة الباحث المستقصى ناقداً ما كان من أمر الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك مع قائده « موسى بن نصير »

فاتح الأندلس ؛ أنظر إليه يقول : « وحلّ بموسى ما حلّ بكثير غيره
من قواد العرب البارزين ؛ فقد أذلّه الخليفة سليمان وعاقبه بالوقوف
يوماً كاملاً في حرارة الشمس حتى وقع مغشياً عليه ؛ وصادر أمواله ؛
وجردّه من كل سلطة ، وآخر عهد لنا بموسى فاتح أفريقيا وأسبانيا
مستعظياً في قرية نائية بالحجاز وهو طاعن في السن . . . » .

ولم يخل كتاب الدكتور فيليب حتى — كأي كتاب غيره —
من بعض المآخذ . . فهو يقول عند كلامه عن ولادة الرسول محمد صلى الله
عليه وسلم : « ولقد دعت أمه باسم قد يظل مجهولاً ، أما الاسم الذي
دعى به في القرآن فهو محمد . . . »

هكذا يقول . . مع أن الثابت في جميع المصادر العربية أن الرسول
سُميَّ محمداً منذ الولادة . . سمّاها بذلك جده عبد المطلب .

وعندما يتحدث الدكتور عن قضية اعتزال الحسن رضوان الله عليه
للخلافة ومبايعته لمعاوية يقول :

« . . ولكن الحسن الذي كان يميل إلى الترف والبذخ لا إلى
الحكم والإدارة ، لم يكن رجل الموقف . . . — كذا ! — فانزوى
عن الخلافة مكتفياً بهبة سنوية منحه إياها معاوية . . . » .

وأظن أننا لسنا في حاجة إلى أن نقول إن هذا التعليل لموقف
الحسن ؛ ليس هو التعليل الصحيح !

فلم يكن تنازل الحسن عن الخلافة ومبايعته بها معاوية ناجماً عما
سماه المؤلف « ميل الحسن إلى الترف والبذخ » . . . ومعروف أنه قد
سبق إلى مثل هذا القول بعض المستشرقين . . . فمن أين لهم هذا ؟

ونحن لا نحب أن نطيل في هذا الموضوع ؛ وإنما نقول في إيجاز —
ولسنا في هذا الذي نقوله نأتى بجديد ! — : إن موقف الحسن من قضية
الخلافة إنما كان الموقف الحكيم . . الموقف الذي أملاه على الحسن خوفه
أن تسفك دماء المسلمين ؛ ولا شيء غير ذلك . . . ومن المفهوم أن الناس
قد يابغوا الحسن ؛ بعد مقتل أبيه الإمام . . . والتف حوله الجيش وعاهده
أربعون ألفاً أو يزيدون على أن يموتوا دونه . . . فيأبى أن يقاتل . .
لماذا ؟ لأنه يرى — وما أصح ما يرى — أنه لن تغلب إحدى الفئتين
حتى يذهب أكثر الأخرى فيضن بدماء المسلمين أن تسفك . . . بل هو
يقول في ذلك فيما بعد لمن لأمه على موقفه هذا : « كرهت أن أقتلكم
على الملك » !

أفصح أن يقال بعد هذا إن موقف الحسن عليه السلام من قضية
الخلافة كان باعته ميله إلى الترف والبذخ إلى آخر ما قاله الأستاذ فيليب
حتى متابعا في قوله هذا بعض المستشرقين ؟ !

ويشير المؤلف إلى عصر الأمين بن الرشيد بكلمات لا نرى من المناسب إيرادها هنا . . . إنها كلمات تدعو إلى التقزز . . . ولعمري ما كان أغناه عنها ! وما كان أغنى قراءه الأمريكيين عنها ! ونحن الذين لا نرى في الأمين ما يقربه أى خطوة من أبيه الرشيد ؛ أو من أخيه المأمون ؛ لا نستطيع أن نقول « لا » حينما نرى بعض المؤرخين يوجهون مثل هذه الاتهامات . . . ولكننا حريون أن نقابلها — على الأقل — بالكثير من الشك . . . فالواقع أن شيئاً غير قليل مما نسب إلى الأمين كان من صنع الدعاوة . . . وهذا ما يحتم أن تكون الإشارة إلى ما ساقه المؤرخون من أمثال هذه الاتهامات فى أناة واحتياط .

ويظهر أن المؤلف الفاضل ممن يرجحون أقوال بعض المستشرقين أيضاً ! ممن يزعمون — وما أكثر ما يزعمون ! — إن الفقه الإسلامى قد تأثر بالقانون الرومانى واليونانى إلى آخره . . فهو يقول بصراحة : « ولم يكن فى القرون الوسطى بعد الرومان أحد غير العرب عنى بعلم الشريعة فأنشأ لها نظاماً مستقلاً ؛ والفقه عندهم مبنى فى الدرجة الأولى على القرآن والسنة ولا شك فى أنه تأثر بالنظام اليونانى والرومانى . . . » والادعاء بأن فقه المسلمين قد تأثر بالأظمة الرومانية واليونانية . . ادعاء باطل ولا شك . . وقد ظل هذا الادعاء — مع الأسف — سائداً بعض الوقت غير أن البحوث الأخيرة أوضحت بطلانه بما لا يدع

مجالاً لأى شك . . وأذكر أن فى طليعة من أشاروا إلى هذا الموضوع ؛
داحضين هذا الزعم ؛ الأستاذ فارس الخورى ؛ العالم القانونى ؛ والزعيم
العربى المعروف .

وعلى كل حال . . لا بد لنا من أن نقول ونحن نختم هذا المقال :
إن ما نأخذه على الدكتور فيليب حتى فى كتابه القيم هذا ؛ لا يمكن
أن يطمئن من قيمة هذا الكتاب ؛ فما من شك فى طرافته ،
بل وأهميته لدى قراء العربية والإنجليزية على السواء . .

ثم أن أى كتاب ؛ وخاصة عند ما يتناول بالنقد بعض القضايا الهامة
سواء أكانت تاريخية أم غير تاريخية ؛ يمكن أن يخلو من بعض المآخذ ؟؟

ما من شك في أن في تاريخنا الإسلامي الطويل الأمد من العناصر الهامة والموضوعات الرئيسية ذات الأثر العميق في حياة المسلمين ، ما لوعني به أفاضل الكتاب من أصحاب التخصص في الدراسات التاريخية، وجمعوا بين متفرقه المنشور في بطون الكتب ، ورتبوه أحسن ترتيب وصاغوه في أسلوب العصر الحديث ، وعلى الطريقة العلمية في كتابة التاريخ
لأفاد هذا العمل الجليل أيما إفادة في تقوية الوعي الإسلامي ، وزيادة تمكين الشباب والمتطلعين عامة ، من الإحاطة بمقومات الحياة الإسلامية، ومعرفة شتى عوامل تطورها السياسي والاجتماعي في مختلف الأحقاب .
ومن حسن الحظ أن الدراسات الجامعية — وبالأخص في مصر الشقيقة — تتجه هذا الاتجاه الحسن في العناية بالتاريخ الإسلامي لافرق في ذلك بين جامعات القاهرة والإسكندرية وغيرها من الجامعات الحديثة ، وبين أكبر وأقدم جامعة إسلامية في الشرق اليوم وأعني بها الجامعة الأزهرية .

وليس المقام هنا مقام إحصاء أو استقصاء لما أنتجته جهود هذه الجامعات من مئات الكتب والبحوث في هذا الميدان لا سيما في ربع القرن الأخير ، أي منذ أن تحولت الجامعة المصرية القديمة من جامعة أهلية إلى جامعة أميرية ، ومنذ أن تكونت في الأزهر كلياته

الحديثة الثلاث على مناهج نظامية . . . وإنما اكتفى بأن أشير إلى كتاب واحد من هذه الكتب ألفه عالم أزهرى مرموق ، متخصص فى التاريخ ، كان قبل أن يقدم إلى هذه البلاد ، ونحظى بأقامته بين ظهرانينا مشغولاً بالتدريس فى كلية الشريعة بمكة ؛ كان قبل هذا أستاذاً للتاريخ بالأزهر الشريف .

هذا الكتاب النفيس هو كتاب « الموالى فى العصر الأموى » ، أما مؤلفه الباحث الفاضل فهو الأستاذ محمد الطيب النجار .

وأظن أنه لا يخالف أحد فى أن من أعقد المسائل وأخطرها فى تاريخ الإسلام ، مسألة هؤلاء الموالى وبالأخص فى العصر الأموى .. ومن هم الموالى ؟ هم كما لا يجهل أحد : سكان البلاد التى فتحها المسلمون ثم دخلوا فى الإسلام على أثر الفتوح .

وأظن أيضاً أنه لا يخالف أحد فى أنه قد كان من الصعب أن يحيط القارئ بأطراف هذا الموضوع المتعدد الجوانب ، لعدم وجود الكتاب الذى يجمع بين ما تفرق هنا وهناك من شتى أنواع العناصر والأخبار التى يتكون منها تاريخ الموالى ؛ وقد حوت كتب القدماء كل هذه الأخبار بلا شك . . . ولكنها حوتها على الطريقة التى كانت معروفة إذ ذاك . . . أعنى أنها لم تكن أخباراً مجموعة مرتبة . . . أو مصحوبة بأى لون من ألوان الدراسة والتمحيص . . . وإنما كانت

عبارة من مواد خام ، وشذرات متفرقة بين الألوف من الصحائف
في طيات تلك الكتب التي لم يكن ينقص أكثرها سوى الترتيب
والتنظيم .

ولعل السر في أهمية موضوع الموالى ، أنهم كانوا عنصراً له خطره
في الدولة ، يضاف إلى ذلك أنهم كانوا من أهم أسباب الثورات والفتن
في العصر الأموي خاصة . ومن الناحية الأخرى كان الموالى عاملاً من
أهم العوامل في ازدهار النهضة العلمية والفكرية منذ أن أتيح لهم
أن يدخلوا في الإسلام .

وكان لتلك الثورات والفتن — ولا جدال — أثرها بالنسبة
للأمويين . حيث آلت بهم في النهاية إلى أسوأ نتيجة . . وانتهت إلى
تقلص ظلهم وتلاشي ملكهم ، وقيام الدولة العباسية في أثرهم على يد
زعيم جبار من زعماء الموالى ، وذلك هو أبو مسلم الخراساني ! . .

فهل كان الموالى على حق فيما أخذوه على أنفسهم من مولاة الشعب
في ذلك العصر . أم كانوا في ذلك متجنين مخطئين ، ولم يكن الدافع لهم
على كل ما أتوه ، سوى ما ظلوا يحملونه في نفوسهم من ضغينة وحقد
لأخلفاء بني أمية فحسب وإنما لكل المسلمين ؟ !

نعم هل كانت العصبية العربية وما قيل عن ظلمها وطغيانها في بعض
كتب أئمتها مؤلفون في العصر العباسي . هل كانت السبب حقيقةً

في حق الموالى وفيما أدى إليه هذا الخلق من تذمر ، وفيما أوحى به هذا التذمر من ميل إلى الشغب وإثارة الفتن إلى آخر ما يعرفه المعنيون بالتاريخ الإسلامى ؟ أم أن شيئاً آخر . . . هو السبب في هذا الخلق وفى هذا التذمر ، وأخيراً هو السبب فيما شهدته العصر الأموى من فتن وثورات قام بها الموالى ؟!

لا أريد أن أدخل في صميم هذا الموضوع وأنا بصدد الكلام عن كتاب الأستاذ النجار . . وإنما حسبي أن أشير إلى أن المؤلف الفاضل آراءه في هذا الصدد ، وهى بلا شك نتيجة دراسة واستقراء وأنا أوصيك ملحاً أن تقرأ هذا الكتاب القيم ، فستحكم معى بأنه قد سد فراغاً هائلاً في المكتبة العربية .

ثم إذا علمت أن المصادر التى رجع إليها المؤلف في تأليف كتابه هذا بين كتب عربية مطبوعة ومخطوطة ، وكتب أخرى فرنسية وانكليزية وألمانية وإيطالية ، مما وضعه مستشرقون كبار من أمثال .. « جولد زيهر » و « ميور » و « بارتورلد » و « لامتس » وغيرهم وما كتبه « غوستاف لوبون » في كتابه « حضارة العرب » إذا علمت أن هذه المصادر وقد أربى عددها على مائة كتاب . علمت مقدار ما بذل من جهد وعناء في إخراج هذا الكتاب . . . ثم علمت قيمته العلمية .

وقد قسم المؤلف الكتاب إلى سبعة فصول وخاتمة . . وما أحسن
أن نأتي هنا بما وصف به هذا التقسيم في مقدمته ، إذ يقول :
« ... وراعى في هذا التقسيم أن يكون الكتاب كله وحدة متناسقة
بحيث يستطيع القارئ أن يعتبره باباً واحداً مقسماً إلى فصول . أو فصلاً
واحداً مقسماً إلى فقرات ، وقد جعلت الفصل الأول من الكتاب عن الموالى
قبل العصر الأموى ، ذكرت فيه في كلمة قصيرة كيف نشأ الرق في الإسلام ،
ثم تعرضت للولاء ، وبينت من هم الموالى الذين نقصدهم بهذا البحث ،
ثم ذكرت أحوالهم وسياسة الرسول وخلفائه الراشدين نحوهم ، وذلك
لكي أجعل القارئ في ضوء موازنة بين حالة الموالى في العصر الأموى
وحالتهم قبل ذلك . . ثم جعلت الفصل الثانى عن الحالة الاجتماعية
للموالى في العصر الأموى ، وقد بينت في هذا الفصل منزلة الموالى
في المجتمع العربى وما كان يشوبها على الجملة من تحقير وزرارة نتيجة
للعصية العربية التى كانت سائدة فى المجتمع العربى إذ ذاك . . ولما
كانت هذه النظرة المنطوية على التحقير والازدراء سبباً جعل الخلفاء
الأمويين والولاة فى سائر الأقاليم لا يكثرثون بهم ويتجاهلون حقوقهم
فقد عقدت لبيان ذلك الفصل الثالث من الكتاب ، وهو : « سياسة
الدولة الأموية نحو الموالى » .

ولما كانت سياسة الخلفاء الأمويين في هذه الناحية تكاد تكون
متشابهة ما عدا الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي اتجهج سياسة خاصة ،
وسلك سبيلا آخر ، فإنني قد عقدت لبيان ذلك الفصل الرابع من
الكتاب وهو « عمر بن عبد العزيز والموالي » وبهذه الفصول السالفة
يتجلى لنا موقف المجتمع العربي والدولة الحاكمة من الموالي في العصر
الأموي . . .

ولما كان الموالي يشعرون بأنهم أصحاب مجد قديم ومدنية عريقة وأن
العرب قد اغتصبوا منهم ذلك المجد والسلطان وعلى الرغم من ذلك
لم يعاملوهم على أساس من العدالة والمساواة فإنهم قد قاموا بمجاهدون
لاسترجاع مجدهم والانتقام لأنفسهم وقد سلكوا لتحقيق تلك الغاية
ثلاثة طرق :

« أولا » السيطرة على الحركة الفكرية ، وقد استفادوا من ذلك فائدتين
إحداها : أنهم قد عوضوا أنفسهم بالعلم عن ذلك الازدراء الذي كان
ينالهم من العرب حيث إن العلم يسمو بصاحبه ويرفعه ، وثانيتها : أن
بعضا منهم قد أدخل إلى الإسلام مبادئ غريبة ترجع إلى ديانتهم
القديمة فكان هذا من الأسلحة الفتاكة التي أوهنت من قوة
العرب والإسلام .

« ثانيا » مناوأة ذلك التيار القوى — تيار العصبية العربية —
بتيار قوى آخر، وهو تيار الشعوبية وقد كان لذلك إرهاصات ومقدمات
في العصر الأموي .

« ثالثا » مؤازرة تلك الحركات الثورية المتعاقبة التي كانت تقوم
ضد الدولة الأموية لكي ينتقموا لأنفسهم ويقتربوا من أهدافهم .

وقد عقدت لذلك ثلاثة فصول متتابعة ، وهي :

الفصل الخامس : الموالى والحركة الفكرية .

الفصل السادس : ارهاصات الشعوبية .

الفصل السابع : ثورات الموالى ونهاية الدولة الأموية .

ثم ختمت هذا البحث باستعراض عام لموقف الدولة الأموية من
الموالى وموقف الموالى من الدولة لكي أبين إلى أى حد كان خطأ
الأمويين أو عدم خطئهم في اتهام تلك السياسة — ولكي أبين مدى
الآثار التي ترتبت على موقف الموالى من الدولة . . . »

وهكذا . . . وعلى هذا النمط من التحليل يمضي الأستاذ النجار
في عرض كل فصل من هذه الفصول .

مِنْ نَوَادِرِ الْمَخْطُوطَاتِ

هذا مخطوط من نواذر المخطوطات حقا . . لا لأنه قديم ، فما أكثر ما هو مشحون من هذه المخطوطات القديمة في خزائن الكتب ، حتى إذا أتيح لك أن تبحث فيها ، وتقلب أوراقها ، وتطلع ما بين سطورها جاءك الخبر اليقين عنها بأنها لا تحوى أى جديد أو على الأصح لا تحوى أى شىء غير مكرر أو معاد من أنواع المعارف ، ومن ضروب الفنون .

هذا المخطوط النادر الطريف ، ماهو إلا كتاب حديث ، ألفه مؤلفه فى القرن الرابع عشر الهجرى ؛ أما أنه نادر فلأن الموضوع الذى طرقة هذا الكتاب ، لا أظن كتاباً آخر حواه ، أو مؤلفاً آخر عنى بدراسته والكتابة فيه .

والفضل يعود للأستاذ الباحثة المعروف الشيخ عبد الوهاب الدهلوى فى إطلاعى على هذا الكتاب القيم الذى شاء مؤلفه المؤرخ العالم المشهور الشيخ عبد الستار الدهلوى رحمه الله — جرياً على عادة علماء السلف الفضلاء — أن يسميه : « موائد الفضل والكرم الجامعة لتراجم أهل الحرم » وهو اسم يدل على المسمى ، وعنوان — كما ترى — يشير إلى الموضوع . . .

كان العلامة الشيخ عبد الستار الدهلوى رحمه الله — من الجنود المجهولين فى هذه البلاد ، من حيث التوفر على خدمة العلم عن طريق

التدوين والتأليف وان كان هو من حيث ما اختص به من العلم والفضل
أشهر من أن يذكر .

ولقد حفلت مكتبته القيمة ، التي أبي إلا أن يتركها عند وفاته
في عام ١٣٥٥ هـ وقفا للباحثين وطلاب العلم ، حفلت هذه المكتبة
بنفائس من المخطوطات ، إلى جانب ما تميزت به من احتوائها لأشهر
ما هو مطبوع من الكتب في مختلف العلوم والفنون ، وخاصة منها ،
كتب الحديث وسائر علوم الدين واللغة والأدب والتاريخ والتراجم ،
ولعل ما ضمنته هذه المكتبة من الكتب الخطية المشتملة على تواريخ
هذه البلاد لا يوجد له نظير في أي مكتبة أخرى من المكاتب الخاصة
أو العامة .

في هذه المكتبة توجد أشهر مؤلفات العلامة تقي الدين الفاسي
مؤرخ مكة في القرن التاسع الهجري ، وتلميذ ابن خلدون .

وحسبك أن تعلم أن كتاب « العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين »
وهو أكبر مؤلفات الفاسي وأهمها ، ويقع في ثمانية مجلدات كبار ،
محتوية على ما ينوف على أربعة آلاف ترجمة . . حسبك أن تعلم أن
هذا الكتاب الضخم توجد منه نسخة مخطوطة كاملة في هذه المكتبة ؛
وهي النسخة الوحيدة الكاملة فيما أعلم من هذا الكتاب ؛ وحسبك
أن تعلم بعد هذا أن هذه النسخة قد نقلها الشيخ عبد الستار بقلمه ، عن

أجزاء هذا الكتاب ، وهى متفرقة موزعة بين دار الكتب المصرية ،
ومكتبة الأزهر وغيرها من المكتبات !

وكتاب آخر للفاسى أيضا ، نقله الشيخ عبد الستار بقلمه عن
النسخة الخطية الموجودة بدار الكتب المصرية ، وأعنى به « شفاء الغرام
فى أخبار البلد الحرام » وهذا الكتاب يقع فى مجلدين كبيرين ،
وهو أوفى كتاب فى تاريخ مكة من أقدم عصورها إلى زمن المؤلف ،
ولست أغالى إذا قلت إنه إذا وفق الله ثرياً من أثريائنا الغير ، للقيام
بطبع هذين الكتابين ، فإنما يقوم بخدمة من أعظم الخدمات للعلم ، وإنما
يؤدى أحسن ما يؤديه الرجال العاملون .

هذا عن مكتبة العلامة المذكورة ومحتوياتها : أما عن مؤلفاته
الخاصة فإن كتابه « موائد الفضل والكرم » يدل — حقيقةً — على
ثقافة تاريخية مكينة ، وسعة اطلاع وإحاطة بكل ما يتعلق بتاريخ هذه
البلاد وتراجم أهلها فى القديم والحديث .

وللمرحوم الشيخ عبد الستار ، غير كتابه هذا ، كتاب آخر فى التراجم
له أهميته بلا شك ، وهو مخطوط أيضاً ، وربما يقع فى أربعة أو خمسة
أجزاء إذا أمكن أن يظهر للناس مطبوعاً وأعنى به كتابه فى تراجم
القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجرى ، وليس هذا الكتاب قاصراً

على تراجم أعيان الحجاز فحسب ، بل هو شامل لغيرهم ، من كل
ذى شخصية بارزة ؛ مشهور في البلدان العربية والإسلامية الأخرى .
أما كتابه « موائد الفضل والكرم » وهو الذى أردنا التعريف
به فى هذا المقال ، فهو يبحث فى تراجم المكين وبخاصة منهم ، من
هاجرت أصولهم على توالى العصور إلى مكة من شتى أقطار العالم
الإسلامى ، واشتهروا واشتهرت أسرهم فيها ، ومن هذه الأسر ما هو باق
إلى اليوم ، ومنها أسر كريمة مشهورة لم يبق لها اليوم من أثر ،
فأصبحت خبراً من الأخبار .

ولعل من الخير أن نأتى بفقرات فى وصف هذا الكتاب من
مقدمة المؤلف نفسه ، قال : « القصد فى هذا التأليف ذكر البيوت
المعروفة ، والعائلات المشهورة ، من سكان البلد الحرام » إلى أن يقول
« وإنى لم أجد تأليفاً فى هذا الأمر خاصة ، غير ما ذكره العلامة المؤرخ
قاضى مكة التقي الفاسى فى كتابه العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ذكر
فيه تراجم علمائها وقضاةها ومن ورد مكة حاجاً وقد انقرض غالب ذريتهم
ولم يبق منهم إلا القليل نادراً وقد استجدت بعد وفاته سنة ٨٣٢ هـ
عائلات أخر ، لم أجد من ذكرهم وجمعهم فى تأليف مستقل ، وقد
ذكرت شذمة من أحوالهم فى تاريخى المسمى (فيض الملك المتعالى
بذكر أبناء القرن الثالث عشر والتالى) ، وهم مفرقون فى أحرفهم ناقلا

ذلك عن أفواه الأساتذة الذين أدركتهم من المعمرين ومن تاريخ شيخنا العلامة المؤرخ الشهير أحمد بن محمد الحضراوى ومن معاجم أهل عصرى واثباتهم وكنت حررت ذلك ووقف قلمى فى العام الثلاثين والثلاثمائة والألف وقد أطلعت بعده ، على أشياء قيدتها وأردت جمعها ، وضم بعضها إلى بعض وهو المقصود من هذا المؤلف . . . » .

ويمضى المؤلف فيشير إلى مسألة المسائل فى تاريخنا الاجتماعى ، مسألة المسائل التى كثر حولها الجدل . . . وأعنى بها الهجرة من الحجاز وإليه . . . وكيف بدأت هذه الهجرة ؟ ومتى بدأت ؟ وماذا أحدثت من النتائج ؟ وهو إذ يشير إلى هذه المسألة إنما يروى الكلام عن مصدر من مصادر كتابه ، قال عنه إنه . . . « شرح الرسالة الجديّة لابن زيدون » من تأليف الشيخ جعفر لبنى ، وهذا ما يرويه المؤلف :

« وقد علم من مجموع ما تقدم أن سكان مكة فى ذلك العهد كانوا قريشاً ومن جاورهم من خزاعة لكن خزاعة لما ذهبت عنهم رئاسة مكة ، جاوروا أطرافها شاماً ويمناً ولهم بقايا إلى اليوم معروفون بين القبائل ، ثم لما جاء الإسلام وانتشر الصحابة من المهاجرين والأنصار وأبناءؤهم فى الجهاد فى سائر الجهات ، ورأوا الأراضى الخصبية ، والأفياء الباردة ، والظلال المتفيدة ، وصارت للقوم فيها أملاك رغبوا فى الاستيطان ثمة ، وتبعهم الجم الغفير يذهبون ارسالاً إلى مصر والمغرب والشام والعراق

ليعيشوا مع أبناء جلدتهم في الخصب والسعة ، والرفاهية والدعة والظلال ،
فما مضى بعد ظهور الإسلام نحو قرنين إلا ولم يبق في مكة والمدينة من
أهلها إلا أقل القليل مع من جاورهم من مسلمي الآفاق للتشرف بالجوار .
وكان من عادة ملوك مكة أن ينادى مناديتهم بعد أداء مناسك الحج
« يا غريب بلادك » وهو عادة اتخذت من زمن الفاروق رضى الله عنه فإنه
كان يأمر أن ينادى يومئذ : يا أهل الشام شامكم ، يا أهل اليمن يمنكم ،
وذلك لئلا يكثر المجاورون فيستأثروا بمالهم من الثروة بأرزاق أهل مكة
فيضيّقوا ، وقد تركت هذه العادة من مدة طويلة .

هذا ما يقوله صاحب « شرح رسالة ابن زيدون » وقد تعمّدنا أن
ننقل هذه الفقرات بحذفيرها .. أولاً لأنها تتصل بالبحث كل الاتصال ؛
وثانياً — لكي نشير — ولو أن في هذا تجاوزاً لموضوع البحث —
إلى هذا الأثر ، الذي هو « شرح رسالة ابن زيدون » والذي قام بتأليفه
عالم من خيرة علمائنا في الجيل الماضي . . فعلام تدل هذه الفقرات التي
أوردناها هنا ؟ إنها تدل على قيمة هذا الأثر ، من حيث موضوعه
وأسلوبه معاً . . أرايت كيف أنه رصين العبارة ، مركز الموضوع ، خالٍ
من السجع وقد كان هذا السجع شعار المؤلفين جميعاً في كل ما يكتبون ؟!

وشىء آخر أيضاً يدلنا عليه هذا الأثر . . . إنه يدلنا على أهمية ما كان يبذله علماؤنا فى الجيل الماضى ، من عناية بالغة بالتأليف فى الأدب إلى جانب تأليفهم فى العلوم الدينية .

ومن المؤسف اليوم ، وفى عصر النهضة العلمية والأدبية ، أن هذه العناية لم تعد موجودة . . .

ومن المؤسف أيضاً أن يكون لدينا تراث أدبى ذو قيمة يحوى أمثال « شرح رسالة ابن زيدون » وغيره ، فلا نعمل على إحياء هذا التراث كما يعمل غيرنا ، ولا ننشر كل مخطوط من هذا القبيل !

ولنعد إلى موضوع البحث . . . فإن فى كتاب « الموائد » فوائد شتى وتوضيحاً لحقائق كثير من الأسر المكية ، ومن الطريف أنه يشير إلى مسألة نسب السادة والأشراف فيقول : « إن كثيراً من الناس يظن أن نسب الأشراف خاص بأولاد الحسن السبط كما أن نسب السادة خاص بأولاد الحسين الشهيد بكربلاء ، وليست هذه قاعدة فكثيراً ما يقال لأشراف مكة السيد فلان ويقال لأشراف المدينة المنورة أشراف ، وهم حسينيون » إلى أن يقول : « ويوجد بين السادة القاطنين بمكة والمدينة ، من هم أدارسة المغرب كما سيأتى وهم حسينيون » .

ثم يأتي على ذكر البيوت المشهورة قديماً ، فيقول عن بيت القطبي :
« ومن البيوت التي اشتهرت بالفضائل ثم انقرضت والدوام لله . بيت
القطبي ، وقد اشتهروا باسم عمهم قطب الدين الشهير من أهل القرن
العاشر ، صاحب التاريخ المسمى بالأعلام » إلى أن يقول : « وابتداء
مجاورتهم بمكة في أواخر القرن التاسع كما يشعر بذلك بعض أحوال
ذكرها في تاريخه المذكور . وكان مفتي مكة من طرف الدولة العثمانية ،
وهو أول مفتي مكة من الحنفية »

و بعد أن يستطرد إلى ذكر المشهورين من بيت القطبي يقول :
« وكانت مساكن بيت القطبي بحارة الشامية عند الباب الصغير للمسجد
الحرام الذي بالركن الغربي اليماني من زيادة دار الندوة وكان اسمه باب
الفهود . . ثم اشتهر بباب القطبي ، وهو إلى اليوم كذلك » .

ومن البيوت المنقرضة التي أشار إليها : بيت الطبري وبيت
المرشدي . وبيت ابن ظهيرة القرشي الخزومي ، وهو يقول عن بيت ابن
ظهيرة إنه بيت قديم وكان منهم علماء وأفاضل في المذاهب الأربعة
وكانوا هم وبيت الطبري وبيت النويري القامنين بالخطابة بالمسجد الحرام
لا يشار إليهم فيها غيرهم إلى حدود عام ألف وإحدى وأربعين » .

وكثيراً ما نجد المؤلف يكتب سطرًا واحداً عن أسرة من الأسر
ثم يترك بياضاً بعده بمقدار صفحة كاملة أو صفحات ، مما يدل على

أنه كان ينوى إكمال الكتابة عن هذه الأسرة بعد أن يستوعب
معلوماته عنها ، فهو يقول عن بيت الراضى مثلاً : «ومن البيوت الشهيرة
الآن بيت الراضى فان منهم شاعر زمننا المفلق » ثم يقف عند ذلك . .
ولاشك أن إشارته هنا إنما هي إلى الشاعر الأشهر ، الشيخ عثمان الراضى
رحمه الله المتوفى سنة ١٣٣١ هـ

وبعد فان كثيراً من الأسر المعروفة في الوقت الحاضر ، أشاد بها
هذا الكتاب وكم كنا نود أن نورد نماذج من ذلك هنا لولا ضيق المجال .

يقول المعنيون بتاريخ الصحافة ، إن أول صحيفة عربية صدرت في العالم العربي هي صحيفة « الحوادث اليومية » التي أنشأها نابليون بونابرت في القاهرة عام ١٧٩٩ م .

وأول صحيفة صدرت في لبنان هي « حديقة الأخبار » عام ١٨٥٨ م ثم صدرت في دمشق جريدة « سوريا » عام ١٨٦٥ م وفي العراق جريدة « الزوراء » عام ١٨٦٩ م وفي اليمن جريدة « صنعاء » عام ١٨٧٩ م وفي فلسطين جريدة « النفير العثماني » عام ١٩٠٤ م .

فما هي أول صحيفة صدرت في هذه البلاد ؟

في بحث قيم للأستاذ الباحثة رشدي ملحس عن تاريخ الطباعة والصحافة في الحجاز يقول : « إن أول صحيفة صدرت في مكة هي جريدة « الحجاز » وهي جريدة أدبية علمية أسبوعية تصدر باللغتين العربية والتركية أصدرتها الحكومة العثمانية عام ١٣٠١ هـ واستمر صدورهما إلى عام ١٣٣٤ ثم انقطعت عن الصدور حين خروج الحكومة التركية من هذه البلاد » .

ويقول الأستاذ : « وكان يتولى الإشراف عليها أي جريدة الحجاز هذه (مكتوبجي) الولاية واشترك في تحرير قسميها العربي والتركي كل من أحمد جمال أفندي منشيء ديوان الولاية ، واحد حقى أفندي

الكاتب في الديوان المذكور والشيخ محمود شلهوب ، وغيرهم ، وكانت
تطبع بأربع صفحات في المطبعة الأميرية « اهـ .

ومن الواضح أن الحالة العسكرية العامة في البلاد في تلك الفترة
لم تكن تسمح بوجود أكثر من هذه الصحيفة ، غير أنه منذ عام ١٣٢٧ هـ
أي بعد الانقلاب العثماني المشهور بدأت الصحف في الظهور ، فصدرت
في تلك السنة في جدة جريدة « الصفا » باللغة العربية غير أن هذه
الصحيفة لم يصدر منها سوى عدد واحد فقط . . ثم صدرت بعدها
في جدة في نفس السنة جريدة « الإصلاح » لصاحبها « راغب مصطفى
توكل » وكان يتولى تحريرها صحفي لبناني هو « أديب هراوى » واستمر
صدورها بضعة أشهر ثم توقفت عن الصدور .

وفي عام ١٣٢٧ أيضا صدرت في مكة جريدة يومية باسم (شمس
الحقيقة » وكانت تصدر باللغتين العربية والتركية مرة في كل أسبوع
مؤقتا لصاحب امتيازها ومديرها المسئول (محمد توفيق مكى) ونائب
مديرها (إبراهيم أدهم) وكانت هذه الجريدة لسان حال جمعية الاتحاد
والترقي بمكة ، وقد توقفت عن الصدور أيضا بعد أن ظلت تصدر
بضعة شهور .

وصدرت في المدينة المنورة أثناء الحرب العالمية الأولى جريدة باللغة
التركية لم أطلع عليها ولا أذكر اسمها بالتأكيد . . .

هذه هي كل الصحف في العهد العثماني ، فإذا استثنينا أولها وهي التي استمرت من حين صدورها إلى عام ١٣٣٤ — لأنها الجريدة الرسمية — تبين لنا أنه لم يكن هناك صحافة سوى ما ظهر منها خلال بضعة أشهر من عام ١٣٢٧ هـ ، ومع ذلك لم يكن لهذه الصحف أية قيمة أدبية أو سياسية ، أو أي أثر في تكوين الوعي ، أو توجيه التفكير . .

ومما يلفت النظر أنه لم تظهر طيلة العهد العثماني كله مجلة واحدة للعلوم والآداب وما من شك في أن السبب في ذلك يعود إلى قلة انتشار التعليم ، واعتماد المدرسة الرشدية — ولعلها المدرسة الحكومية الوحيدة في مكة إذ ذاك . . — اعتمادها في التعليم على اللغة التركية وحدها .

وإليك أنموذجا من تحرير صحافة ذلك العهد . . ننقله عن العدد الخامس من جريدة « شمس الحقيقة » الصادر في يوم الثلاثاء غرة ربيع الأول عام ١٣٢٧ فقد جاء في صدر العدد المذكور : وفي مكان الافتتاحية بعنوان « تنبيه » ما يأتي :

« ينبغي لمن شاء أن يكاتبنا في موضوع أن ينبذ وراءه المصلحة الذاتية فإن الأفكار الراقية التي لاتعميها الأغراض الشخصية ولا الأطماع الذاتية تنظر بنور الله إلى مصلحة الوطن العمومية .

ألا ترى سيدنا موسى الكليم عليه السلام قال : « أخرجتها لتغرق أهلها » ولم يقل لتغرقني نظري ذلك لغيره وقدمه على شخصه في وقت

الفرق الذى لا يعرف إلا إنسان فيه إلا نفسه فليخش الله المكاتبون ،
وليتق الله المحررون ، ولا يحرروا لجريدتنا سوى الحقيقة لأنها « شمس
الحقيقة » ثم ليكتبوا فى دائرة واجبات الصحافة الحرة التى ذكرناها
سابقا لأن جريدتنا تتنزه عن المثالب وماضاها نسأل الله حسن التوفيق
لسعادة الوطن .

ولعل النبذة الآتية تدل على ما كانت عليه حالة التعليم فى الحجاز
فى ذلك العهد فقد جاء فى هذه الصحيفة فى عددها الثانى عشر الصادر
فى ١٤ ربيع الآخر سنة ١٣٢٧ هـ بعنوان : « هل ترقى الحجاز قبل
السودان ؟ » ما يأتى :

« ظهرت جريدة فى الخرطوم بالسودان تسمى « الخرطوم » غايتها
أن تبذل السعى فى ترقى أبناء ذلك الوطن ففرح بها أهل السودان
ومحن نتمنى لها دوام الانتشار ونستلفت أنظار أولى الأمر بالتسريع
فى أمر ترقى الحجاز من تأسيس المكاتب — يقصد المدارس — وغير
ذلك فان دوائر الحكومة لو احتاجت إلى كاتب للزم جلبه من خارج
الولاية . أهلك الله الاستبداد ما أشد تدميره ! »

وبمقارنة صحيفة شمس الحقيقة هذه . . بصحيفة الإصلاح التى كانت
تصدر فى جدة تبدو هذه الأخيرة أرقى من حيث التحرير ومن حيث

الطباعة عن زميلتها الأولى . بل ومن صحيفة الحجاز أيضا . الصحيفة الرسمية للحكومة التركية . .

ولم أطلع على العدد الوحيد الذي صدر في جدة من جريدة «الصفاء» وربما كانت هذه الصحيفة تشارك زميلتها الإصلاح من حيث رونق الطباعة واتساق التحرير .

والواقع أنه لم يكن غريباً أن تكون صحافة بلادنا في ذلك العهد بدائية إلى هذا الحد . . . لم يكن غريباً أن يكون هذا حال الصحافة في بلاد لم يكن فيها مدارس للتعليم سوى مدرسة واحدة للحكومة يتلقى التلاميذ فيها قشوراً من المعلومات الأولية باللغة التركية وسوى مدرسة أهلية دينية . . هي المدرسة الصولتية .

وهكذا . . . !

وهكذا ظل الحجاز ، وظلت جميع أنحاء الجزيرة العربية طيلة العهد العثماني . . . لا صحافة ولا مدارس ولا تعليم بالمعنى الصحيح لكلمتي مدارس وتعليم !

وكانت النهضة العربية في عام ١٣٣٤ هـ فيصلاً بين عهدين : عهد «تأبعية عثمانية» ، وعهد استقلال . . إلا أن الواقع أثبت مع الأسف الشديد أن تلك النهضة كانت «ضئيلة الأثر» من ناحيتها الإجتماعية والثقافية ،

ولهذا كان أثرها ضئيلاً أيضاً في الميدان الصحفي . . . وقد صدرت جريدة « القبلة » في أولى سنوات النهضة وبتعبير أدق سنة ١٣٣٤ هـ وكان يساهم في تحريرها نخبة من صفوة أدباء العرب يكفي أن نذكر منهم السيد فؤاد الخطيب الشاعر الكبير المعروف ؛ والسيد محب الدين الخطيب . وأحمد شاكر الكرمي وغيرهم والحق أقول أنه كان يمكن أن يكون لجريدة القبلة إذ ذاك شأن مرموق في عالم الصحافة العربية لولا بعض عوامل وقفت بها في بداية الطريق . . .

وصدرت في عام ١٣٣٨ جريدة باسم الفلاح لصاحبها السيد عمر شاكر ، وكانت هذه الصحيفة تصدر في سوريا قبل دخول الفرنسيين إليها فهاجر بها صاحبها من سوريا إلى الحجاز .

وفي عام ١٣٣٨ أيضاً ؛ صدرت المجلة الزراعية وهي مجلة شهرية كان يتولى تحريرها طلاب المدرسة الزراعية بمكة ، وقد ظهرت الأعداد الثلاثة الأولى من هذه المجلة في صورة لا بأس بها من حيث الإنشاء والتحرير فلو أن هذه المجلة أتيحت لها أن تستمر ، بل لو أنه أتيحت للمدرسة الزراعية التي كانت تقوم باخراجها أن تستمر لكانت الحال غير الحال ولكن . . .

وفي عام ١٣٤٣ صدرت في جدة جريدة « بريد الحجاز » ثم توقفت عن الصدور في نفس العام بعد أن صدر منها (٥٢) عدداً وقد

كانت هذه الصحيفة أسبوعية وهي آخر صحيفة ظهرت في عهد الحكومة الهاشمية .

وفي ١٥ جماد الأولى سنة ١٣٤٣ في أول عهد حكومة المغفور له جلالة الملك عبد العزيز صدر العدد الأول من جريدة « أم القرى » ، وكان يرأس تحريرها في أول ظهورها معالي الأستاذ الشيخ يوسف ياسين ثم الأستاذ رشدي ملحس ثم تولى تحريرها فترة من الزمن المرحوم محمد سعيد عبد المقصود ؛ فالأستاذ عيد القدوس الأنصاري ويرأس تحريرها الآن الأستاذ الطيب السامي .

ثم صدرت بعد ذلك مجلة الإصلاح عن شعبة الطبع والنشر بمديرية المعارف في عام ١٣٤٧ وكان يديرها الأستاذ محمد حامد الفقي وهي مجلة دينية علمية أخلاقية كانت تصدر مرة في الشهر ، ثم مرتين في الشهر ، ثم توقفت عن الصدور في عام ١٣٤٩ هـ .

وفي عام ١٣٥٠ صدرت جريدة « صوت الحجاز » لصاحب امتيازها الوجيه الشيخ محمد صالح نصيف ورئيس تحريرها الأستاذ عبد الوهاب آشي ، وقد تعاقب عليها فيما بعد رؤساء تحرير عديدون أذكر منهم الأساتذة « أحمد إبراهيم الغزاوي » و « السيد حسن الفقي » و « محمد سعيد العامودي » و « محمد حسن عواد » و « أحمد السباعي » و « محمد علي رضا » و « محمد علي مغربي » وغيرهم ثم انتقل امتياز هذه الصحيفة في عام ١٣٥٤ إلى

شركة الطبع والنشر العربية^(١) وظلت تصدر أسبوعياً ، ثم مرتين
فى الأسبوع ، ثم توقفت عن الصدور فى بعض سنوات الحرب الأخيرة
بسبب قلة الورق ، ثم عادت إلى الصدور أسبوعياً عام ١٣٦٥ باسم
« البلاد السعودية » وتولى « رئاسة تحريرها الأستاذ عبد الله عريف
وقد تمكنت جريدة البلاد السعودية من الصدور مرتين
فى الأسبوع وأخيراً ثلاث مرات فى الأسبوع وهى فى طريقها إلى
الصدور يومياً فى القريب العاجل بإنشاء الله^(٢)

وقد راجت هذه الصحيفة فى السنوات الأخيرة رواجاً أكثر من
أى عهد مضى ، وأصبح لها قراء من كل الطبقات وهى لا ينقصها
إلا زيادة العناية بالأخبار الخارجية والمحلية ؛ ثم الإقلال من المواضيع
الأدبية بقدر الامكان لعلاقة هذه المواضيع بالمجلات أكثر من علاقتها
بالصحف الأخبارية ..

وفى عام ١٣٥٥ هـ صدرت مجلة « المنهل » فى المدينة المنورة وهى
مجلة شهرية للآداب والعلوم لصاحبها ورئيس تحريرها الأستاذ
عبد القدوس الأنصارى ، وهى ثانية مجلة شهرية صدرت فى هذه البلاد بعد

(١) برأس هذه الشركة معالى الأستاذ الشيخ محمد سرور الصبان مستشار حلاله
الملك « سعود » المعظم ووزير الدولة ، وعند هذه الشركة مشاريع صحفية عديدة
يرجى أن تتحقق تبعاً لإنشاء الله

(٢) صدرت يومية ابتداء من شهر ربيع الثانى من هذه السنة ١٣٧٢ ١٥

المجلة الزراعية التي أسلفنا الإشارة إليها وقد تطورت هذه المجلة بحيث أصبحت لا تقل في مادتها وفي أسلوبها عن مثيلاتها من المجلات الأدبية الراقية في العالم العربي ؛ وأصبحت تصدر في مكة منذ عام ١٣٦٥ هـ ومجلة المنهل تعتبر المجلة الأدبية الأولى في المملكة السعودية .

وفي عام ١٣٥٥ صدرت جريدة المدينة المنورة لصاحبها الأستاذين الشقيقين علي وعثمان حافظ وهي جريدة أسبوعية نشيطة تغني بالأخبار أكثر من عنايتها بالمقالات والبحوث ؛ وبالأخبار العربية والإسلامية على وجه الخصوص .

وكانت تصدر قبل الحرب الأخيرة مجلة النداء الإسلامي لصاحبها الأستاذ مصطفى اندرقيري ثم توقفت عن الصدور .

ثم صدرت في غرة رجب من عام ١٣٦٦ مجلة الحج وهي مجلة شهرية إسلامية تتولى إصدارها إدارة شؤون الحج وكان يرأس تحريرها في أولى سنواتها الأستاذ السيد هاشم زواوي ؛ ثم كاتب هذه السطور منذ أول عام ١٣٧٠ هـ وتغني هذه المجلة بالمواضيع الإسلامية والعربية بصورة عامة ثم بكل ما يتصل بشؤون الحج والحجاج^(١) .

(١) ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشير إلى ظهور مجلة جديدة راقية وتلك هي « اليامة » لصاحبها ومؤسسها الأديب الباحث المعروف الأستاذ حمد الجاسر والمقامة تصدر في الرياض وهي أسبوعية أدبية علمية غير أنها تصدر الآن مرة في الشهر موقتا وقد كانت الأعداد التي صدرت منها حافلة باجود المقالات والبحوث في مختلف موضوعات اللغة والدين والأدب والتاريخ وبأقلام سعودية ناضجة . مما يبشر بأن لهذه المجلة الناهضة مستقبلا مجيدا إن شاء الله

وبعد . . . فهذه إلمامة موجزة عن تاريخ الصحافة في هذه البلاد ؛
ولئن كان من واجبنا أن نقرر هنا أن صحافتنا في كل من عهديها التركي
والهاشمي لم يكن لها أثر يذكر . . فان من واجبنا أيضا أن نقول أنها
قد بدأت الآن تشق الطريق . . . والأمر الذي لا يختلف فيه إثنان
أنها في حاضرها قد أصبحت شيئا آخر يختلف كل الاختلاف عما كانت
عليه فيما مضى . .

والأمل بعد وفي هذا العهد الباسم السعيد عظيم في أن تخطو صحافتنا
خطوات واسعة وسريعة . . نحو القوة والأزدهار !

في كتاب الله في قوله تعالى ان في خلقه تصرفات
 وكذا في قوله تعالى ان في خلقه تصرفات
 لهذا ولما في القرآن الكريم من قوله تعالى ان في خلقه تصرفات
 في قوله تعالى ان في خلقه تصرفات
 في قوله تعالى ان في خلقه تصرفات
 في قوله تعالى ان في خلقه تصرفات
 في قوله تعالى ان في خلقه تصرفات
 في قوله تعالى ان في خلقه تصرفات
 في قوله تعالى ان في خلقه تصرفات

ثم في قوله تعالى ان في خلقه تصرفات
 في قوله تعالى ان في خلقه تصرفات
 في قوله تعالى ان في خلقه تصرفات
 في قوله تعالى ان في خلقه تصرفات
 في قوله تعالى ان في خلقه تصرفات
 في قوله تعالى ان في خلقه تصرفات
 في قوله تعالى ان في خلقه تصرفات
 في قوله تعالى ان في خلقه تصرفات

في قوله تعالى ان في خلقه تصرفات
 في قوله تعالى ان في خلقه تصرفات
 في قوله تعالى ان في خلقه تصرفات
 في قوله تعالى ان في خلقه تصرفات
 في قوله تعالى ان في خلقه تصرفات
 في قوله تعالى ان في خلقه تصرفات
 في قوله تعالى ان في خلقه تصرفات
 في قوله تعالى ان في خلقه تصرفات

الطوبى لمن يخلص كل النفس الى الله

دوله كما انما هو في الدنيا والله تعالى اعلم
فلهذا لا بد من ان يكون له في الدنيا
لهذا لا بد من ان يكون له في الدنيا
لهذا لا بد من ان يكون له في الدنيا

هل الحروب تطوى الحصار

الاشياء كما هي في الدنيا والله تعالى اعلم
لهذا لا بد من ان يكون له في الدنيا
لهذا لا بد من ان يكون له في الدنيا
لهذا لا بد من ان يكون له في الدنيا

الطوبى لمن يخلص كل النفس الى الله

الاشياء كما هي في الدنيا والله تعالى اعلم

لهذا لا بد من ان يكون له في الدنيا
لهذا لا بد من ان يكون له في الدنيا
لهذا لا بد من ان يكون له في الدنيا

لعل لهذا الاستفتاء^(١) الذي شاعت مجلة المنهل أن توجهه إلى الأدباء، في هذه الأيام مغزاه الخاص الذي إن دل على شيء فأنما يدل على فداحة ما يحسه الناس من خطر الحرب العظيم، وعلى أهمية ما يقدرونه لنتائجها من تأثير حاسم في سير الحضارات وفي مقدرات الشعوب.

وما من شك في أن للحروب كائنة ما كانت تأثيرها لا بالنسبة إلى الجموع المتقابلة في الجبهات والميادين فحسب وإنما بالنسبة إلى من سواهم أيضاً وأعني أولئك الذين يسمونهم في لغة هذا العصر «السكان المدنيين» ومن الواضح الذي لا يحتاج إلى دليل أن الغالب والمغلوب متساويان أمام هذه التأثير !

فأول ظاهرة من ظاهرات هذا التأثير وأهمها، هو ما يتكبد به كل من الفريقين المتحاربين من خسارة مؤلمة في الأرواح، فهما كانت الحرب المشتبكة بين فريقين من الناس بسيطة جداً، أو مهما كانت (بدائية) فالذي لا شك فيه أن خسارة الأرواح فيها محققة.

(١) كتب جواباً لاستفتاء مجلة المنهل ونشر في عددها الصادر في جمادى الآخرة

سنة ١٣٥٩ هـ

الحرب شيء بغيض كل البغض لدى كل النفوس !

حتى أولئك السباقون إلى ميادينها ... حتى أولئك الذين إذا ما حمى
الوطيس يظهرون ما يظهرون من بسالة وإقدام ، ومن تضحية بالنفس ،
وإقبال على الموت ، حتى أولئك الأبطال بحق إنما يخوضون غمار الوغى
اضطراباً لا اختياراً . . . وإنما يقدمون إلى الحرب في شجاعة ورغبة
وحماس ، لاحقاً في الحرب ، وإنما لأن السبب أو الفكرة أو عبارة
أخرى : الإيمان الذى يدفعهم إليها يحتم عليهم هذا الإقدام وهذه الرغبة
وهذا الحماس . . . أما شعور البغض للحرب من حيث هى فأحسب أنه
ما يزال كامناً في نفوسهم كمونه الذى لا يمكن أن يحول . . . ذلك لأن
نفوسهم لم تخرج عن كونها نفوساً إنسانية لديها من الأحساس بحب
الحياة . . ما يركز فيها هذا الشعور ، وسرعان ما ينتهى ما يخوضون غماره
من حرب ، وتنتهى دوافع ذلك ودواعيه ، حتى ينكشف وجه الحق ،
ويتجلى للعيان هذا البغض الغريزى المكبوت ويطفو من عقل الإنسان
الباطن ، إلى عقله الواعى ؛ هذا العقل الذى تعود دائماً أن ينظر إلى
الأشياء كما هى ، على ضوء من التأمل والتفكير .

الحرب شيء بغيض كل البغض لدى كل النفوس !

قال عنها أشهر قواد الحروب فى العصور الحديثة نابليون بونابرت :
« إنها عمل بربرى وحشى » وقال عنها قائد شهير آخر : « لو شهدت يوماً

من أيام الحرب لتوسلت إلى الله أن لا يريك يوماً ثانياً منها » وقال عنها هذا القائد أيضاً : « ليس أفضع من الإنكسار في المعركة إلا الانتصار فيها » ، وقال عنها لويس نابليون : « ما الحرب إلا أعمال بربرية منظمة وهي من بقايا الممجية مهما اختلفت مظاهرها وأشكالها » .

الحرب شيء بغيض كل البغض لدى كل النفوس !
ولكنها ماذا . . . ؟

إنها الشر الذي لا بد منه في هذه الحياة . . . وقد شاء الله بحكمته السامية أن تكون الحياة ميداناً للنقائض والاضداد ، ليتحقق فيها التوازن ويعمل عمله ناموس التنازع على البقاء ، ويتم التمايز بين الشيء ونقيضه ، بين الخير والشر ، بين الكمال والنقص ، بين القوة والضعف ، بين الفضيلة والرذيلة ؛ بين الأمن والخوف ، بين الشدة والرخاء ؛ إلى آخر ما هنالك من الاضداد والنقائض !

لا بد من وجود الحرب إذن وليكن ما يكون !

لا بد من وجود الحرب إذن بالرغم من شعور البغض العميق بإزائها ، وبالرغم عما تجره وراءها من أخطر النتائج ، وأشد الأضرار ، وبالرغم من تحديها لهذا الإنسان في أسمى ما يقدره ويحرص عليه ، من مثل عليا ، ومن أفكار وفلسفات . . . ومن حضارة وعمران ، وعلوم وفنون .

ولكننا نسأل هنا ، متابعين في هذا السؤال مجلة المنهل الغراء :

ما هو مدى تأثير الحروب في الحضارة يا ترى ؟ !

وهل صحيح أن الحروب تطوى الحضارات ، أم أن الأمر على النقيض ؟ .

أما أن يكون الرد هنا إيجابا ، فقد لا يعدم الباحث في هذا الصدد ، أدلة من التاريخ يستخرجها « لأول وهلة » من هنا ومن هناك ، لإثبات الدعوى ، وكسب القضية !

هوذا تاريخ الحروب جميعها في كافة العصور القديمة والوسيطة والحديثة ، وفي الشرق وفي الغرب مائل أمامنا ، هوذا تاريخ الأمم المتحضرة التي خلدها التاريخ من يونانية ورومانية وفينيقية وقرطاجنية وإسلامية وسواها ، فماذا ليت شعري سيجد الباحث في هذا التاريخ من أدلة إفناء الحروب للحضارات ؟

الواقع أن تاريخ كل هذه الشعوب الشهيرة مملوء بالحروب و بالدماء ، والواقع أن بعضا من هذه الشعوب « فينيقيا » و « قرطاجنة » قد كان من نتائج الحروب المتتالية عليها أن قضت عليها القضاء الأخير وطوت حياتها طيا من هذا الوجود ...

ولكن أحقا أن ما دونه التاريخ من أصول الحضارتين الفينيقية والقرطاجنية قد قُضي عليه أيضا وطوته تلك الحروب طيا ، وأصبح في خبر كان ؟

وهل حقا أن حضارة اليونان القديمة قد طويت من الوجود منذ

اليوم الذى غلب فيه اليونانيون على أمرهم ، ودخلوا تحت سلطة روما
بعد أن أنهكتهم حروبهم المتوالية مع الرومانيين ؟

وحضارة الرومان ، وحضارة مصر فى العصر القديم ، ثم حضارة
الاسلام فى العصر الوسيط كل هذه الحضارات العظيمة قد أصيبت
بأضرار من الحروب ، ولكن هل طوت كل هذه الحروب كل تلك
الحضارات ؟ !

لقد أضرت الحروب حقا بكل تلك الأمم ، وألحقت بها من فادح
النكبات ما قضى على البعض منها نهائيا ، وما قضى على البعض الآخر
منها بعض الشيء ، وليس من شك فى أن أعظم ما أصيبت به هذه
الشعوب الأخيرة جميعا ، هو أن الحروب التى نكبت بها قضت فى
طليعة ما قضت عليه ؛ على أهم آثار حضارتها ومظاهر عمرانها ؛ وهذا
هو وحده ما عنيناه حينما قلنا إن الباحث قد لا يعدم دليلا من التاريخ
على إثبات الدعوى التى تقول بأن الحروب لا بد أن تطوى الحضارات .
ولكننا بعد أن نفكر قليلا سنرى أن القضاء على آثار حضارة
ما ، ليس معناه القضاء الأبدى على أصول تلك الحضارة . إن حضارة
أى شعب لا بد أن تنتقل إلى الشعوب الأخرى ، سواء أظل هذا
الشعب عائشا فى الوجود أم أصبح من تلك الشعوب التى طواها التاريخ ،
إن حضارات مصر وفينيقيا وقرطاجنة واليونان والرومان ؛ ثم حضارة

الاسلام فى عصره الذهبى ؛ ما زالت أصولها قائمة إلى يومنا هذا وهل
حضارة أوربا الراهنة إلا مزيج من كل تلك الحضارات ؟ !

قد تختلف حضارة اليوم عن كل ما تقدمها من الحضارات ، وقد
تمتاز عليها بشتى المظاهر والعلوم والفنون ، ولكنها قد ضمت ولا جدال
بين شتى مظاهرها وعلومها وفنونها خلاصة من كل حضارة سابقة ،
وقد يكون هذا وحده هو سر تفوقها المشاهد المأموس !

وقد تطوى الحروب أمما وشعوبا ، وقد تطوى مع تلك الشعوب
والأمم ، ما قد يكون فى أوطانها من مظاهر حضارتها فى الوقت الذى
تكون الإنسانية قد هضمت فيه أصول تلك الحضارة ، وأخذت منها
عنصرها الجوهرى ، وفى الوقت الذى تغدو فيه تلك الحضارة ميراثا للعالم
أجمع ، وملكا لكل أمة فى الوجود .

وكما أن الحروب لا يمكن أن تطوى الحضارات فهى أيضا لا يمكن
أن تعوق سيرها واستمرارها وتقدمها ، بل أنه فى كثير من الظروف تكون
الحروب أكبر معاون لا تتشار الحضارة . . . إن الحاجة أم الاختراع كما
يقولون ؛ والحروب بطبيعتها تشجع نواحي الاختراع والابتكار فى كل
شئ . الحروب تدعو بطبيعتها إلى تقدم الصناعات الحربية على اختلاف
أنواعها ، وإلى التفنن والاكتشاف فيها من كل جديد ، وتقدم هذه
الصناعات يدعو بطبيعة الحال إلى تقدم سائر فروع الصناعات الأخرى .

والحروب بطبيعتها أكبر مساعد على تقدم الزراعة وانتشارها ، لأن
الأمّة المحاربة أو المستعدة للحروب تحاول دائماً وبكل الوسائل أن تزرع
أكبر مساحة ممكنة من أراضيها لكي لا تبقى إذا جدّ الجد . . . عالة على
سواها ولكي تغدو قادرة على تموين بلادها ؛ وعلى الصمود أمام أى
حصار يوجهه إليها الأعداء !

وكما استمر تقدم الفنون الصناعية والزراعية استمر تقدم العلم الذى
هو العنصر الهام لدى كل الحضارات !

والحروب أيضاً تساعد بطبيعتها على سرعة انتقال الحضارة من
بلاد إلى بلاد . . . ذلك لأن اختلاط كل فريق من المتحاربين
فى الميادين أو فى بلاد الفريق الآخر يدعو إلى هذا الانتقال . . .

وفى تاريخ الحروب الإسلامية الأولى ؛ ثم فى تاريخ الحروب الصليبية
المشهورة ؛ أعظم الشواهد على هذا الذى نقول . . .

حروب الإسلام وفتوحاته الأولى ساعدت من غير شك على اقتباس
الحضارات التى كانت قائمة فى البلدان التى غزاها المسلمون ، ومن هذا
الاقتباس ومن هذا الامتزاج والتصاقب بين عناصر تلك الحضارات
وبين الروح الإسلامية والتعاليم الإسلامية ، والعادات الإسلامية . . .
تكونت تلك الحضارة الإسلامية العظيمة التى شمع نورها فى العالم
فى الوقت الذى كانت فيه سائر الممالك الأخرى تتخبط فى ليل دامس
من الجهل والاضمحلال . . .

والحروب الصليبية ساعدت ولا جدال على اقتباس أوروبا لأصول الحضارة الإسلامية . إن تلك الحروب الطاحنة المدمرة ، تلك الحروب التي كانت بلاءً على الشرق وعلى العرب وعلى الإسلام كانت في الوقت نفسه أول عوامل انتقال الحضارة من الشرق إلى الغرب ، وكانت السبب المباشر لكل ما نشاهده اليوم من مظاهر الحضارة العصرية وتقدمها واتساعها .

وبعد فهذا هو تأثير الحروب في الحضارات !
لا يمكن أن تطوى أولاهما أخراهما بأية حال من الأحوال .
ولا يمكن أن تعوق أولاهما أخراهما من البقاء والاستمرار ؛ وفوق هذا جميعه نستطيع أن نزعم أن في بقاء الحروب واستمرارها بقاءً واستمراراً لكل الحضارات !

وهذه هي الحقيقة المرة ؛ مع الأسف الشديد !!
أو هذه هي المشكلة . . . كما يقول شاعر الانكليز الأكبر . . .
شكسبير !

الفهرست

صفحة	
٣	مقدمة
٥	تصدير
١٣	سياسة المال في عهد عمر بن الخطاب
٢٧	عمر بن الخطاب والضمان الاجتماعي
٤٣	من أوليات عمر
٥٣	العناصر النفسية في سياسة العرب
٦٧	تاريخ العرب الموجز
٧٧	الموالي في العصر الأموي
٨٥	من نواذر المخطوطات
٩٥	من تاريخ الصحافة في بلادنا
١٠٧	هل الحروب تطوى الحضارات

لثبته مسبوكة

تحت عنوان - رؤا

بالحرفين بـ و تـ

قريباً . . . للمؤلف

١ - مقالات وكلمات

٢ - الذكرى : ديوان شعر

٣ - شعراء من الحجاز : تراجم

٤ - شعر وأقاصيص أخرى

أ. س. ع.

بالحرفين بـ و تـ

بالحرفين بـ و تـ

(تمت الطبعة الثانية)

ظهور حديثاً

أمى - والعم سحتوت

الأستاذ عبد الله عبد الحجاز

« أمى » وهو عنوان يهز وجدان كل إنسان بما يطويه من ذكريات ، والذكريات التي تضمنتها القصة في هذا هي ذكريات الواجب والتضحية والبذل ، وتستمد القصة حوادثها في هذا كله من مأساة فلسطين الدامية ، على أن القصة لا زالت كما يقول المؤلف تنتظر فصلها الختامى الذى يصير البطل على أن يكتبه بدم الأعداء .

وأما القصة الثانية ، فهي قصة « العم سحتوت » وهي صورة إنسانية رائعة تقوم فكرتها على معنى العدالة الاجتماعية ومناط هذه العدالة بأداء الواجب لغير غاية ، وتجري وقائع القصة في أسلوب الحوار والتثيل وهو حوار يدل على فهم دقيق للشخصيات وللخلجات النفسية .

والقصتان بعد هذا كله صورة حية ناطقة للبعث الأدبي في موطن العربية الأول .

وقريباً :

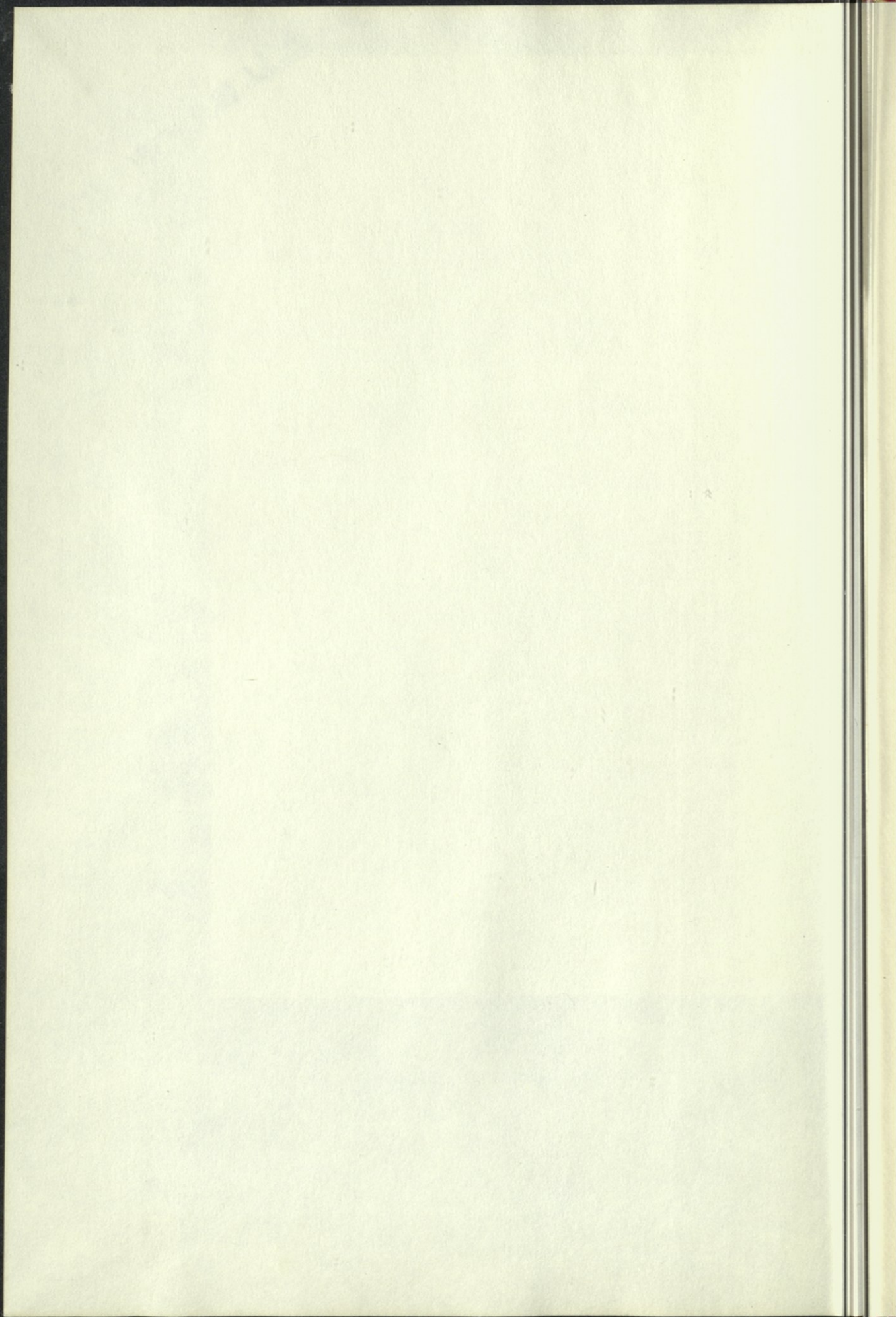
بقلم الأستاذ

١ - قصة الأدب في الحجاز . محمد فرهمى عبد اللطيف

٢ - سائق البريد . وقصص أخرى . الشهير بالجاحظ

(مجموعة قصصية حجازية)

7871 a - 3076 a



DATE DUE

LIBRARY

A.U.B. LIBRARY

297.09:A529mA:c.1

العامودي، محمد سعيد

من تاريخنا

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01002784

297-09
A529mA

